الكتب والمكتبات فى الأندلس
المبحث الثالث(*)

بحث مقدم من
الدكتور حامد الشافعى دياب
استاذ مساعد المكتبات والمعلومات بجامعة القاهرة

المبحث الثالث

يتناول هذا المبحث حركة المكتبات فى الأندلس من حيث نشأتها وتطورها، عددها ونوعيتها، ومصادر تكوين مجموعاتها، ونظم إدارتها، وطرق التنظيم الفنى للمقتنيات، كل ذلك بأسلوب ميسر مختصر، وأخيراً يتناول المبحث بالوصف والتحليل مكتبة قرطبة ـ بشىء من بسط القول ـ كنموذج مميز لهذه المكتبات، بهدف استبصار الوضع المكتبى فى الأندلس، وإلقاء الضوء على الواقع المكتبى فى الأندلس وإلقاء الضوء على الواقع المكتبى الذى بلغ درجة عالية من النضج قل أن تبلغه المكتبات القائمة فى أصقاع الامبراطورية الإسلامية فى ذلك الوقت.

٣/١ نشأة المكتبات فى الأندلس

ارتبط ظهور المكتبات فى الأندلس ارتباطاً وثيقاً بحركة الإنتاج الفكرى بها من حيث الكثرة والتنوع، وارتبطت هذه الحركة ـ بدورها ـ ارتباطاً وثيقاً بالحياة العقلية والفكرية فى البلاد.

وهذا ما يعبر عنه أهل الاختصاص ـ فى عصرنا الحديث ـ بجناح الإنتاج بما يحتويه من البحث والخبرة والتكوين والتأليف، وجناح الاختزان والاسترجاع بما يحتويه من التحليل والتنظيم(١٠٣).

فالمكتبات على أنواعها زادها الأساسى المؤلفات والمصنفات على تباين موضوعاتها واختلاف أنماطها وأعدادها من حيث الكثرة أو القلة، فهى تعتبر المرفق الحاضن لهذه الأوعية الفكرية، وأن هذه الأوعية ثمرة جهد المؤلفين والعلماء فى البحث والدراسة والخبرة والتجربة وهذا كله نتيجة طبيعية لرقى الحياة العقلية والعلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة فى ذلك الوقت؛ والتى دفعت بحركة التأليف والابتكار إلى الأمام قدماً.

(*) هذا البحث بقية المقال الذي نشر في العدد السابق من المجلة ع ٨ يولية ١٩٩٧.

obeikandl.com

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعود الدورة الفكرية حركتها تارة أخرى، وهذا ما يطلق عليه التغذية المرتدة Feedback أو التقليم المرتد كما يسميه ميدوز[١٠٤]، حيث تقدم المكتبات خدماتها المعلوماتية المباشرة وغير المباشرة للباحثين والدارسين لتساعدهم على التكوين والبناء المعرفى، وتدفعهم إلى التأليف والإنتاج الفكرى، وهكذا تستمر هذه المنظومة التى يمكن أن نعبر عنها بثلاثية: المدخلات، التجهيز، المخرجات بمصطلحات هذا العصر إن جاز لنا التعبير.

وفى المبحث الأول ألمحنا إلى الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس، بشىء من غيض الفيض كما يقولون، كما أشرنا فى المبحث الثانى إلى حركة التأليف والإنتاج الفكرى فى الأندلس، وفى هذا المبحث نتحدث عن الحلقة الثالثة الأخرى، ألا وهى المكتبات فى الأندلس، التى تعتبر دعامة من دعامات الحضارة الأندلسية.

ازدهرت حضارة الأندلس ازدهاراً عظيماً إبان الحكم الأموى للبلاد، فقد اشتهرت الأسرة الأموية بحب العلم وإكبار العلماء، ويظهر ذلك واضحاً منذ أن وطأت أقدامهم أرض الأندلس، فكان عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ ـ ٧٥٦م)[١٠٥] معروفاً باتساع ثقافته وعلمه، واستطاع بفضل ألمعيته وذكائه أن يبنى قرطبة ـ بعد أن اتخذها حاضرة للبلاد ـ فشيد المبانى الضخمة وأقام القصور، واهتم بنشر التعليم فأنشأ المدارس والمعاهد التعليمية، واهتم بنشر الثقافة الإسلامية فأنشأ المساجد ودور العبادة، حتى غدت قرطبة مهداً للحياة الراقية، ومصدراً للعلم والحضارة، وموطناً للفلاسفة والشعراء، وموئلاً للعلماء والمفكرين، ومركزاً للفنون والآداب، وبلغت تطوراً عمرانياً لا مثيل له فى دول الغرب المعاصرة.

ثم تولى بعد عبد الرحمن الداخل مجموعة من الأمراء كان لهم الفضل فى توطيد أركان الدولة الأموية بالأندلس سياسياً وحضارياً، فساروا على نفس النهج فى عنايتهم بالعلم والأدب ونشر الثقافة الإسلامية فى أرجاء الأندلس.

وقد أثمرت هذه السياسة وتلك الجهود العلمية ثمرتها لدى الأندلسيين، والتى تمثلت فى شغفهم بحب الكتب وجمعها «وازداد الشغف بالكتب ونما لدرجة قصوى جديرة بالإعجاب حقا»[١٠٦].

ولم تكن هواية جمع الكتب واقتنائها وقفاً على الأمراء والخلفاء، وإنما شملت الشعب الأندلسى كله، حتى غدت المنافسة جادة بين هؤلاء الهواة وبين جماعى الكتب، وأصبحت عملية اقتناء الكتب علامة مميزة من علامات الرفعة والسؤدد، لا يستغنى الرجل منهم عن تأسيس مكتبة فى بيته حتى وإن لم يكن على قدر مناسب من المعرفة، وصار ذلك عندهم «من آلات التعيين والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به»[١٠٧].

ونقرأ وصفاً شاهداً على ذلك ـ يدل على حب أهل قرطبة للكتب ـ ما ذكره «المقرى» على لسان «أبى يحيى الحضرمى» الرحالة المشهور وجمّاع الكتب، الذى غشى سوق الكتب فى قرطبة لشراء أحد الكتب، حيث جرى العرف على أن يتم البيع بالمزاد العلنى بوساطة خبير أو مثمن، جاء على لسان الحضرمى «أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد فى ثمنه، فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة علىّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له يا هذا، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى، قال: فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده. فقال لى لست بفقيه ولا أدرى ما فيه، ولكنى أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد، استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق، فهو كثير. قال الحضرمى: فأحرجنى، وحملنى على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطى الجوز من لا له أسنان، وأنا الذى أعلم ما فى الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلاً، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه»(١٠٨).

وترسم هذه القصة ما كان عليه سوق الكتاب فى قرطبه من رواج بصورة أفضل من أى وصف آخر له، كما توضح فى الوقت ذاته أن جمع الكتب واقتناءها لم يكن يقصد به العلم دوماً، بل يقصد به الترف والجاه أحياناً، وأخيراً تبين لنا القصة صفات وفئات جماعي الكتب.

وهناك نصوص ليست قليلة ـ لا داعى لذكرها من باب الاختصار ـ تدل على أن الأشخاص العاديين الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من العلم والمعرفة كانوا حريصين على ألا تخلو منازلهم من مكتبات تشتمل على أنفس الكتب.

ومن استقراء هذه النصوص وتحليلها يتبين لنا عدة أمور نجملها فيما يلي:

١ ـ كانت هواية جمع الكتب واقتنائها ـ والتى تمكنت من قلوب الأندلسيين ـ لها أكبر الأثر فى توسيع دائرة التأليف، وإحداث زيادة متنامية فى حركة النسخ، وتنشيط مستمر لحركة بيع الكتب.

٢ ـ كانت هذه الهواية وراء إنشاء المكتبات وخاصة فى قرطبة التى غدت أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأصبح أهلها أشد الناس حباً فى إنشاء المكتبات.

٣ ـ أن أكثر أنواع المكتبات التى نشأت فى الأندلس يقع تحت فئة «المكتبات الخاصة» التى أنشأها الأفراد على اختلاف مستوياتهم.

٤ ـ ساعدت هذه الهواية على نشر التعليم

ومحو الأمية، حتى أصبح أغلب السكان يعرفون القراءة والكتابة، ولا نغالى إذا قلنا أن الأندلس كانت آنذاك من بين البلاد القليلة فى العالم التى أضمحلت فيها الأمية حتى زالت أو كادت.

مما سبق يتبين لنا أن شغف الأندلسيين بجمع الكتب واقتنائها كان وراء مجموعة من الأنشطة الثقافية والعلمية ـ ساندتها ودعمتها ونهضت بها ـ كالتأليف والنسخ والتوزيع والتعليم وإنشاء المكتبات.

٣/٢ دراسة للإتجاهات العددية والنوعية للمكتبات في الأندلس وتشمل:

١/٣/٢ الدراسة العددية للمكتبات:

لا توجد مصادر وافية نطمئن إليها للتعرف على عدد المكتبات فى الأندلس على وجه اليقين، لكن تبدو من الملاحظات المستقاة من النصوص المختلفة هنا أو هناك أن عدد المكتبات فى الأندلس لم يكن قليل بحال من الأحوال، وهذا ما تؤيده الأرقام التى حصلنا عليها وحللناها بعد مضاهاتها ومقارنتها بعضها ببعض فى المصادر المختلفة.

تجمع مختلف المصادر على أن عدد المكتبات زاد زيادة كبيرة فى الأندلس، ومع ذلك لاتشير هذه المصادر إلى عدد كل نوع من أنواع المكتبات بصورة واضحة تساعد على الدراسة والتحليل الكمى، أو إلى عددها فى المدن المختلفة فى الأندلس، ولكنها تتحدث عنها جملة لاتفصيلاً.

وفى محاولة للتعرف على هذه الجوانب نسوق مجموعة من النصوص المستقاة من عدة مصادر، لتحليلها واستخلاص ما يعن عنها من استنتاجات:

* تشير دائرة معارف القرن العشرون إلى أنه «كان فى الأندلس ٧٠ مكتبة عامة وكثير من المكتبات الخاصة»(١٠٩).

* ويذكر محمد محمد أمان أنه «خلال الازدهار العظيم للثقافة الإسلامية فى الأندلس، كان هناك ما يقارب سبعين مكتبة عامة»(١١٠).

* تشير المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه إلى أنه كان يوجد «فى قرطبة وحدها عشرون مكتبة عامة»(١١١).

* أما محمد عجاج الخطيب فيقول «كثرت المكتبات فى الأندلس وبلغت نحو سبعين مكتبة أيام الخلافة سوى المكتبات الخاصة»(١١٢).

* وتذكر مجلة «المقتطف» أنه «كان فى الأندلس سبعون مكتبة عمومية (عامة) عدا عن المكاتب الخصوصية (المكتبات الخاصة) التى كان بعضها كبيراً جداً»(١١٣).

من خلال هذه النصوص وغيرها مما يماثلها يمكن أن نستنتج بعض المؤشرات، نسجلها على النحو التالي:

١ ـ بلغ عدد المكتبات فى الأندلس أكثر من سبعين مكتبة عامة، أى كان يحق للجمهور

العام استخدامها والاستفادة من مقتنياتها، واستخدام بعض المصادر السابقة لكلمات مثل «نحو» أو «مايقارب» دليل على عدم التيقن من معرفة العدد الفعلى أو الحقيقى لهذه المكتبات فى الأندلس.

٢ ـ من المؤكد أن عدد المكتبات الخاصة بالأفراد كان يفوق الحصر، دليل ذلك لم يشر أى مصدر إلى هذا العدد أو حتى بطريقة تقريبية. وقد ذكر المستشرق الأسبانى «خوليان ريبيرا» عدداً كبيراً من أصحاب هذه المكتبات كنماذج لهذا النوع من المكتبات(١١٤).

٣ ـ أن المكتبات بنوعيها سواء كانت عامة أو خاصة ازدهرت إبان ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس، وواكبت التقدم العلمى الحادث فى البلاد، وهذه نتيجة طبيعية، حيث تعتبر المكتبات فى كل مكان وزمان مرآة عاكسة لهذه التطورات الحضارية والعلمية.

٤ ـ أن أكثر المكتبات العامة عدداً كان يوجد فى قرطبة حاضرة البلاد، حيث بلغ هذا العدد (٢٠) مكتبة، وهذا مؤشر صدق، فقد جرى العرف ـ ولا يزال ـ أن تكون العاصمة فى أى قطر ما هى مركز الثقل العلمى والنشاط الثقافى، ومن ثم تكثر فيها المكتبات عدداً وتزداد حجماً، كإحدى النتائج المباشرة للناحيتين العلمية والثقافية.

وأخيراً وليس بآخر فقد عجزت مختلف المصادر عن إمداد الباحث بقسط وافر من الإحصائيات اللازمة للتحليل الكمى للمكتبات فى الأندلس، حتى أصبح ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ومع ذلك فإن الخروج بالمؤشرات السابقة لهو نوع من النجاح الجزئى لدراسة وتحليل هذا العنصر.

١/٢/٣ الدراسة النوعية للمكتبات:

يقصد بالدراسة النوعية للمكتبات التعرف على مختلف أنواع المكتبات فى الأندلس، والمكتبات فى الأندلس ـ كما سبق القول ـ هى نتاج الحضارة الإسلامية وانعكاس صادق لها، وهى (أى المكتبات) فى ذات الوقت رافداً رئيسياً فى تغذية وإمداد وترقية وتوسيع نطاق هذه الحضارة.

ومن ثمّ عندما ازدهرت الحركة العلمية وزاد التقدم الحضارى فى الأندلس، زاد بنفس القدر عدد المكتبات بها، وتنوعت أغراضها حتى شملت كل أنواع المكتبات الموجودة فى أيامنا هذه، مثل مكتبات المساجد والجوامع، المكتبات الخاصة، المكتبات العامة، المكتبات المدرسية، المكتبات الأكاديمية، مكتبات المشافى والمارستانات (البيمارستانات)، لدرجة أنه أصبح من الصعب حصر مفردات هذه الأنواع والحديث عنها، لأن ذلك يفوق الحصر، لذلك نكتفى بذكر الأمثلة فقط من هذه الشواهد للتدليل على ما نذهب إليه.

وفى الفقرات التالية عرض مبسط لبعض هذه المكتبات النوعية فى الاندلس أو فى المغرب الأقصى باعتبارهما وحدة جغرافية وتاريخية واحدة، حيث يطلق عليهما «العدوتين»، من

أجل كشف النقاب عن هذه المكتبات وإماطة اللثام عنها.

١ ـ مكتبات المساجد والجوامع:

يعتبر هذا النوع من المكتبات أول الأنواع نشوءاً فى الإسلام، فقد جرت العادة ولا تزال أن يودع بعض وجهاء الناس وعلية القوم فى المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وعدداً آخر من الكتب الدينية، لفائدة المطالعين من المصلين رواد هذه المساجد. ولا تسعفنا المصادر فى معرفة أول مكتبة مسجدية أنشئت فى الأندلس وتحديد مكان وتاريخ إنشائها بالضبط، ومع ذلك يمكن القول أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة، فلا دراسة بدون كتب، ومن ثم كانت المكتبات احدى طرق المسلمين فى نشر الدين والعلم، وكانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جدا لدرجة أننا لا نستطيع استقصاء أخبار المساجد التى وجدت بها مكتبات ذات أهمية، ومع ذلك يمكن القول أنه قلما خلا مسجد من مساجد الأندلس من مكتبة تحتوى على مجموعة من الكتب يرجع إليها الدارسون والقراء.

ومن أشهر مكتبات المساجد فى الأندلس مكتبة جامع قرطبة ومكتبة جامع طليطلة، وقد كان لحلقات الدرس والبحث التى تعقد فى جامع طليطلة شهرتها وأهميتها ومكانتها التى جذبت الطلاب من كل مكان، واحتفظت طليطلة بهذه المكانة حتى بعد سقوطها على يد الأسبان سنة ١٠٨٥م، حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب فى أحد مساجدها وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هى مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية فى الشمال[١١٥]

٢ ـ المكتبات الخاصة:

ويقصد بها المكتبات التى تخص أفراداً معينين، إنشاؤها على نفقتهم الخاصة ولفائدتهم ولمصلحتهم الشخصية، فقد درج القوم بالأندلس وفى المغرب الأقصى كذلك على حب الكتب والاهتمام بجمعها وإنشاء مكتبات خاصة بهم للتباهى بها، ويرجع البعض ذلك إلى أن «حب التملك غريزة فطرية فى الإنسان، وحيثما توجد كتابة وكتب، تجد تلك الغريزة مجالها للانطلاق، ومن أجل ذلك ظهرت المكتبات الخاصة فى الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر»[١١٦] كما ساعد على نمو هذه الظاهرة وانتشارها بصورة كبيرة بين الناس فى الأندلس «انتشار استعمال الورق ورخص ثمنه وهبوط أثمان الكتب، نتيجة لرخص المواد التى تصنع منها ولرخص أجور النسخ والتجليد»[١١٧]. هذا بالإضافة إلى الأجواء الفكرية والسياسية السائدة آنذاك، حيث كانت البلاد تزخر برقى حضارى وخاصة المدن الكبرى مثل قرطبة، علاوة على تشجيع الحكام للعلم والتوسع فيه على نطاق أكبر، وكان الحكام أنفسهم مثلاً يحتذى فى حب الكتب وجمعها والاهتمام بها.

وقد أشار «خوليان» المستشرق الأسبانى فى مقاله المشار إليه سلفاً[١١٨]، إلى عدد كبير من

أصحاب المكتبات الخاصة فى الأندلس سواء كانوا من الرجال أو النساء، ومن ثمّ لا نريد أن نستطرد فى ذكر الأمثلة، بل نكتفى بمثالين من الأندلس وثالث من المغرب الأقصى صنو الأندلس:

* فممن كان لهم فى الأندلس همة عالية فى جمع الكتب وإنشاء مكتبة خاصة به، القاضى أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس (٣٤٨ ـ ٤٠٢هـ) يقول عنه ابن بشكوال: كان حسن الخط، جيد الضبط، جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس مع سعة الراوية والحفظ والدراية، وكان له ستة وراقين ينسخون دائماً وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ فى ثمنه فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخ منه ورده إليه... وبلغ من كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه مدة عام كامل فى مسجده، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية[١١٩].

* والمثال الثانى الذى نسوقه هنا يخص الجنس الآخر ـ وكما يسمى أحياناً الجنس اللطيف ـ ذلك أن المكتبات الخاصة فى الأندلس لم تكن مقصورة على العلماء والأدباء من الرجال، بل وجدت فى الأندلس نساء عالمات، اهتممن بجمع الكتب، من هؤلاء عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (ت ٤٠٠هـ) وهى قرطبية، يقول عنها ابن بشكوال لم تكن فى جزائر الأندلس فى زمانها من يعدلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وجزالة وحصافة... وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة علم كبيرة وحسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة[١٢٠]

* وفى المغرب الأقصى، تبرز فى مقدمة المكتبات الخاصة «الخزانة المنصورية السعدية» بمراكش، يجمع المؤرخون على أن فترة حكم السعديين (٩١٥ ـ ١٠١٢هـ) تعد أهم فترة فى تاريخ المغرب، تزخر بكثرة المراكز الثقافية ووفرة العلماء واهتمام الخلفاء بالعلم والثقافة، وقد لعبت مراكش دوراً ثقافياً هاماً فى تاريخ المغرب خلال حكم الأسرة السعدية، حيث جلبت وجذبت عدداً كبيراً من العلماء والمؤلفين والكتاب، الذين حظوا باهتمام الأمراء السعديين، وكان ثمرة ذلك كله أن ازدهرت المكتبة المغربية وامتلأت بأمهات الكتب العربية. كان أحمد المنصور الذهبى شغوفاً بدراسة الكتب وجمعها، وكان يدعو العلماء من الأندلس والمغرب خصيصاً للتأليف لخزانته، وكان من نتائج الهجوم الصليبى الأسبانى فى أوائل القرن العاشر الهجرى على الجزائر وتونس، أن التجأت طائفة من العلماء الجزائريين والتونسيين يحملون مخطوطاتهم إلى مراكش، بالإضافة إلى مذابح الأتراك التى كانت عاملاً من عوامل هجرة عدد كبير من علماء الجزائر إلى مراكش حاملين ما ضمته مكتباتهم من تراث ثقافى إسلامى خوفاً عليه من الإحراق، كل هذا كان من أهم المنابع

التى استقت منها الخزانة المنصورية ذخائرها ونفائسها، فجمعها المنصور بعد جهد جهيد، وزاد عليها خلفه السلطان مولاى زيدان لما كان له أيضا من حب عميق للكتب والمكتبات[١٢١].

وبالرغم من أن هذه المكتبات وما يماثلها كانت خاصة بالأفراد، إلا أنه كان يباح دخول جل هذه المكتبات للناس جميعا للقراءة والبحث والاطلاع والتثقيف.

٣ـ المكتبات العامة:

تدل كثرة المكتبات العامة وما تزدحم به من مؤلفات فى شتى فروع المعرفة الإنسانية، تدل على مدى ازدهار الحركة الفكرية فى البلاد، وقد حظى الأندلس والمغرب الأقصى خلال عهد الموحدين بالكثير من المكتبات العامة. وفى مقدمة هذا النوع تقف «المكتبة الملكية» أو «الخزانة العلمية» كما كانت تسمى بذلك، وهذه المكتبة أنشأها خلفاء الموحدين، وجعلوا لها أمينًا، وزودوها بمختلف الكتب والمراجع، كذلك نجد «المكتبة الشارية» بسبتة وهى منسوبة لمؤسسها «أبى الحسين على بن محمد الغافقى المعروف بالشارى (ت ٦٤٨هـ)، وكان شغوفا بجمع الكتب، فكون مكتبة عظيمة جعلها للناس عامة وللعلماء خاصة، وكانت هذه المكتبة تجمع بين رفوفها الكثير من ذخائر الكتب ونفائس المخطوطات»[١٢٢].

٤ـ المكتبات الأكاديمية:

يقصد بها المكتبات المخصصة للبحث والدرس لطلاب الدراسات العليا والأساتذة العلماء، والملحقة بمختلف معاهد التعليم العالى. وظهر هذا النوع من المكتبات فى بلاد الإسلام منذ القرن الثانى الهجرى، بصورة تدعو إلى الفخر، حيث كانت هذه المكتبات مراكز بحث بالمفهوم الدقيق للكلمة. ولابد من التنبيه بأن الحركة العلمية والتعليمية بدأت من المسجد، أى أن المساجد كانت أمكنة للتعليم فى بداية الأمر، ولما اكتظت هذه المساجد بالطلاب وزاد عدد المقررات الدراسية وتباينت موضوعاتها وتنوعت طرق الدراسة والبحث، لم تعد المساجد مناسبة للعملية التعليمية، ومن ثم أنشئت المدارس بأبنيتها الخاصة وانتشرت انتشارًا واسعًا فى المدن الأندلسية، وخاصة فى قرطبة، وقد ألحق بجميعها مكتبات قيمة، قدمت خدماتها للطلاب والدارسين ـ آنذاك ـ بصورة جيدة. أما المكتبات الأكاديمية فقد أنشأها الخلفاء واعتنى بها الأمراء، وزاد عددها بصورة كبيرة، ولعل أعظمها فى البلاد الإسلامية ـ كما ذكر القلقشندى فى «صبحه» ـ كانت ثلاث هى: خزانة الخلفاء العباسيين فى بغداد والفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس[١٢٣]. وهذه الأخيرة هى موطن الاهتمام فى بحثنا هذا، وأرجئ الحديث عنها فيما بعد، حيث اتخذتها كنموذج للمكتبات الأندلسية قاطبة، لدراستها وبحث عناصرها المختلفة بتوسع بعض الشئ.

وقبل أن يمتد بنا الحديث عن أحدث وأضخم مكتبة تضم مجموعات نفيسة من التراث الأندلسى، لابد من الإشارة إلى قضية هامة ترتبط بالمكتبات النوعية التى عرضنا لها

باختصار سلفاً، ألا وهى أن هذه المكتبات النوعية لم يكن بينها فروق حدية فاصلة بين كل نوع والنوع الآخر، ومن ثم فليس من المستبعد أن نجد بعض المكتبات الخاصة بالأفراد، يؤمها الناس للاطلاع والمذاكرة حتى ليخيل لنا أنها مكتبة عامة وهكذا.

ومادمنا بصدد الحديث عن المكتبات فى الأندلس، فلا مناص ولا فكاك من الإشارة إلى أهم مكتبة لازالت قائمة حتى يومنا هذا، ألا وهى مكتبة «الاسكوريال» التى تضم أضخم مجموعة فريدة من التراث الأندلسى.

ويقع قصر الاسكوريال فى الضاحية المسماه باسمه، وهى تقع على مقربة من مدريد، على مسافة ٤٩ كم غربى مدريد. وأنشأه الملك «فيليب الثانى» سنة ١٥٥٧م، ويعتبر القصر من أعظم الصروح الملكية فى أوروبا، وأعجوبة العالم الثامنة كما يقول البعض، ويضم القصر مقاماً ملكياً وديراً وكنيسة ومكتبة ومعهداً دينياً ومدفناً ملكياً ومتحفاً.

وتقع المكتبة ـ وهى موضع الاهتمام هنا ـ فى الجانب الأيمن من القصر، وتضم بهواً شاسعاً فخماً تعرض فيه بعض المخطوطات النفيسة النادرة، ومنها مصحف ملكى كريم كان ملكاً للمنصور السعدى سلطان المغرب[١٢٤].

وتحتوى مجموعات المكتبة على ستين ألف مجلد[١٢٥] فى حين يذكر البعض الآخر أن عدد المجموعات بها خمسين ألف مجلد[١٢٦]، كما تضم من بين هذه المجموعات عشرة آلاف مخطوط تعتبر من نوادر المخطوطات ذات القيمة التاريخية والفنية.

وتكونت مجموعات المكتبة من عدة مصادر هى:

١ ـ **الشراء**: حيث كانت فى بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، وما لبث أن قام سفراء الملك «فيليب الثانى» بشراء مجموعة من المخطوطات النادرة من مختلف أقطار العالم لحساب المكتبة.

٢ ـ **مجموعة من المخطوطات العربية** بلغت بضعة آلاف جمعت بعد سقوط غرناطة، من غرناطة نفسها ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة.

٣ ـ **الاستيلاء على مكتبة «مولاى زيدان السعدى»** (١٠١٢هـ ـ ١٠٣٧هـ) سلطان مراكش عام ١٦١٢م وضمها للمكتبة (الاسكوريال)، وكان المولى زيدان مولعاً ولعاً شديداً بالكتب، وعندما وقعت الفتنة واشتد الخلاف بينه وبين إخوته، خشى أن تذهب الفتنة بمكنونات خزانة كتبه التى تقدر بأربعة آلاف مجلد من أنفس الكتب العربية من حيث اختيار الموضوع، وجمال المخطوط، وآثر إنقاذها والمحافظة عليها، فأستأجر لها سفينة فرنسية حمّلها كل هذا التراث، وبينما السفينة فى عرض البحر فى مياه المغرب، اعترضتها سفن قرصنة أسبانية وأخذتها غنيمة إلى الساحل الأسبانى واستولت على الكتب، لتستقر فى مكتبة الاسكوريال بمدريد[١٢٧].

ولمكتبة الاسكوريال فهرس بعنوان «المكتبة العربية الأسبانية فى الاسكوريال» فى جزءين كبيرين أعدهما «ميخائيل الغزيرى، ظهر الأول فى سنة ١٧٦٠م والثانى فى سنة ١٧٧٠م ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية. وقد اتكأت عليه فى دراستنا للضبط الببليوجرافى للإنتاج الفكرى فى الأندلس كأحد المصادر الاقتنائية(١٢٨).

وتعرضت «مكتبة الاسكوريال» طوال تاريخها إلى محن كثيرة فقد وقع فى سنة ١٦٧١ حريق هائل فى المكتبة أتى على جزء كبير من مقتنياتها، ولم يبق إلا القليل من الكتب، قدره البعض بأكبر من ألفين(١٢٩).

ومن نافلة القول أن مكتبة الاسكوريال ليست هى المكتبة الوحيدة التى تحتوى على كتب التراث الأندلسى، ولكن توجد بعض هذه الكتب فى المكتبات الأسبانية الأخرى، مثل مكتبة مدريد الوطنية ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية ومكتبة دير ساكرومنتى بغرناطة.

٣/٣ النظم الإدارية والفنية فى المكتبات فى الأندلس

يقصد بها مجموعة التدابير والإجراءات الإدارية، والأنشطة والعمليات الفنية التى تتم فى المكتبات لتحقيق أهدافها من ناحية وتحقق ذاتيتها وتميز شخصيتها من ناحية أخرى، وتبرز دورها كمرفق من مرافق المعلومات من ناحية ثالثة.

من هذه الأنشطة وتلك الإجراءات بناء وتنمية المجموعات، الإعداد الفنى لهذه المجموعات كالفهرسة وإعداد الفهارس والتصنيف ونظم الترتيب، كذلك المقر والأثاث والعاملين من حيث وظائفهم ومسمياتهم ومؤهلاتهم وتدرجهم فى السلم الوظيفى، والميزانية ومصادرها وأوجه صرفها.

ولم يشأ الباحث دراسة هذه الأمور نظرياً، بل فضل ربطها عملياً، وبيان ما يتم بشأنها فى المكتبات الأندلسية، وهذا أوقع وأكثر نفعاً، لذا فقد تمت معالجة مثل هذه الأمور ضمن العنصر التالى.

٤/٣ مكتبة قرطبة كنموذج للمكتبات الأندلسية

نظراً لكثرة عدد المكتبات وتنوعها فى الأندلس، رأى الباحث ـ تجنباً لتشعب البحث ـ الاكتفاء بدراسة تفصيلية لأهم هذه المكتبات كنموذج لما كانت عليه المكتبات فى الأندلس، ذلكم هى مكتبة الحكم، اسماً أصبح علماً، أن أطلق فلا يدل إلا عليها، ومكتبة الحكم أو مكتبة قرطبة ـ كما تسميها بعض المصادر ـ كانت تحتل المرتبة الأولى، ليس فقط فى الأندلس بلد المقر، بل أيضا على مستوى مكتبات أصقاع الامبراطورية الإسلامية قاطبة وقتئذ، ففضلاً عن مكانة أصحابها، كانت تمتاز بضخامة مجموعاتها من حيث الكم والنوع.

وقد مر فيما سبق بيان ما كانت عليه بلد الأندلس من رقى حضارى وتقدم علمى، ومدى

شغف أهلها بحب واقتناء الكتب، ومدى اهتمام حكام البلاد بتنشيط الحركة العلمية والأدبية فى البلاد، ومدى الاهتمام بالكتاب الإسلامى تأليفاً ونشراً وتوزيعاً.

هذه العوامل وغيرها مما يماثلها كانت وراء نشأة المكتبات فى الأندلس، ولا داعى للحديث عنها مرة أخرى تفصيلاً تجنباً للتكرار وتوفيراً للجهد والوقت، ويكفى التنويه إلى هذه العوامل باقتضاب فيما يتعلق بنشأة هذه المكتبة، لأنها هى التى هيأت البيئة وجعلتها صالحة لنشأتها وازدهارها.

٣/٤/١ نشأة المكتبة:

يرجع تاريخ إنشاء المكتبة إلى عصر محمد الأول (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ) فقد عرف عن الأسرة الأموية اهتمامها بالتعليم، ومن ثمّ حبها للكتب التى هى وسيلة التعليم.

وقد أشار المؤرخون عند كلامهم على عصر محمد إلى المكتبة الملكية على أنها أحسن ما فى مدينة قرطبة(١٣٠).

تولى الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) الذى يعتبر أول من سمى نفسه أمير المؤمنين، وذلك عندما ضعفت الخلافة العباسية واستبد الأتراك بالأمر دون الخلفاء(١٣١).

استمر حكم أمير المؤمنين عبد الرحمن نصف القرن من بداية القرن الرابع الهجرى حتى منتصفه، عمل خلال هذه السنوات على بناء الدولة وتوطيد دعائم الاستقلال والاستقرار، حتى غدت الأندلس موضع اعتبار وتقدير فى المحيط الدولى آنذاك، وأصبحت قرطبة عاصمة عالمية تحظى باهتمام خاص من مختلف الدول وتستقبل كثيراً من وفود هذه الدول وسفرائها الذين يرغبون فى إيجاد صلة وثيقة بينهم وبين الخلافة الإسلامية فى الأندلس.

واشتهر عبد الرحمن النَاصر بحبه للكتب حتى بلغت شهرته الامبراطور البيزنطى (قسطنطين) السابع، الذى لم يجد شيئاً يتقرب به إلى قلب الناصر ـ حينما عزم على عقد معاهدة معه ـ سوى أن يهديه كتاباً جديداً لم يعرفه من قبل، وهو كتاب ديسقوريدس، وكانت النسخة رائعة كتبت بحروف من ذهب وزينت برسوم جميلة تمثل النباتات الموجودة فى النص(١٣٢). وحبه للكتب جعله يهتم بمكتبة القصر الملكية وذلك بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب.

وفى تلك الأيام بدأ كل من ولديه الأميرين الحكم ومحمد دراستهما تحت إشراف معلمين من أهل البلاد وخارجها، وقد زاد شغفهما بالكتب إلى درجة قوية جعلتهما لا يرضيان عن مكتبة أبيهما، وبدأ يتنافسان فى طلب العلم ويتناغيان فى جمعه ويتباريان أيهما يستطيع أن يجمع مكتبة أكثر عدداً وأفضل اختياراً من الآخر، وعندما توفى محمد آلت كتبه لأخيه الحكم وورثها عنه(١٣٣).

وفى منتصف القرن الرابع الهجرى ـ وتحديداً

سنة ٣٥٠هـ ـ تولى مسئولية الحكم فى الأندلس، خليفة أفاضت المصادر التاريخية ـ قديمها وحديثها ـ فى الحديث عنه والإشادة به، وبيان مدى شغفه بالكتب والمكتبات ومقدار اهتمامه بالعلم والعلماء، إنه «الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله» والمعروف فى تاريخ الأندلس بـ «الحكم الثانى». تولى حكم البلاد ـ عقب وفاة أبيه ـ فى الفترة (٣٥٠- ٣٦٦هـ)، وامتازت هذه الفترة ـ على قصرها ـ بنشاط علمى وثقافى متعدد الجوانب، فورث عن أبيه ملكاً ثابت الأركان مستقر الدعائم، وخزائن كانت تزخر بما فيها من أموال ضخمة، حيث كانت الميزانية السنوية للبلاد ـ آنذاك ـ «تدور حول ١٢ مليوناً و٤٥ ألف دينار من الذهب»(١٣٤).

فى هذا المناخ المتميز بالاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى، قامت النهضة الفكرية فى البلاد وبدأت الحركة العلمية تأخذ دورها فى الازدهار حيث جعل الحكم الثانى كل هدفه السير بالأندلس قدماً فى طريق العلم والمعرفة ليتبوأ أعلى مكانة بين الأمم المتحضرة.

وقد ترجم هذا الهدف إلى سلوكيات محسوسة وأعمال ملموسة، فاهتم بالعلم والعلماء وأنشأ سبعاً وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها أبناء الشعب مجاناً، ودفع من ماله الخاص أجور معلميها، كما ساهم بنفسه فى كل نواحى النشاط العلمى والأدبى، فأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر، واستغل الثروات الضخمة التى تركها له أبوه فى الإنفاق على الأبحاث العلمية وشراء الكتب.

وكان طبيعياً أن يوجه الحكم جل اهتمامه إلى بناء وتنمية مجموعات مكتبته الخاصة، فنشر رجاله فى كل مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ويدفعون أغلى الأثمان بغية الحصول عليها، بل وكانوا يصادقون تجار الكتب فى كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور، وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلفيها أو ناشريها لتصدر فى الأندلس قبل أن ترى النور فى بغداد أو الموصل أو البصرة أو مصر، حيث كان الحكم يجد متعة كبيرة فى أن يكون أول قارئ لما يصدر من الأبحاث الجديدة، وكان الموردون ـ بلغة عصرنا الحالى ـ ينتخبون له غرائب التواليف وأنفسها، وحكى القوم الكثير عن حب الحكم للكتب ـ فعلى حد تعبير المقرى ـ كان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعاً للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله(١٣٥).

وهكذا تكونت مكتبة «الحكم الثانى» من اجتماع ثلاث مكتبات هى: مكتبة القصر التى اشتملت على ما جمعه أسلافه، ومكتبة أخيه محمد التى ورثها بعد وفاته، ومكتبته الخاصة التى جمعها من كل حد وصوب. وأخذ الحكم فى تنمية مجموعات المكتبة الجديدة حتى بلغ عددها ٤٠٠ ألف مجلد على أصدق الروايات.

٣/٤/٢ مصادر بناء وتنمية مجموعات المكتبة:

ثمة مجموعة من المصادر التى اعتمدت المكتبة عليها فى بناء وتنمية مجموعاتها، وهى

تكاد تكون نفس المصادر التى تعتمد عليها بقية المكتبات فى هذا الصدد فى الأندلس، بل وحتى المكتبات فى بلاد العالم الإسلامى، نذكر هذه المصادر ـ باختصار ـ فيما يلى:

١ ـ الشراء:

ويعتبر المصدر الأهم فى جمع الكتب وبناء المجموعات، وقد مر الإلماع إلى ما كان ينفقه الحكم الثانى فى شراء الكتب ونوادر المخطوطات بأثمان عالية، حتى يستطيع أن يجمع بأسرع وقت الكتب القيمة، وقد فعل القوم ذلك ـ فالشعوب على دين ملوكهم ـ حيث كانوا ينفقون على شراء الكتب بسخاء، ومن الشواهد على ذلك نكتفى بالإشارة إلى القاضى أبى المطرف عبد الرحمن بن فطيس (٣٤٨ ـ ٤٠٢هـ) ـ وهو من رعايا المسلمين ـ الذى جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره، وكان يزود مكتبته بمصادر كثيرة أولها الشراء[١٣٦].

٢ ـ النسخ:

وكان هناك نساخون يعملون ـ بصفة دائمة ـ فى نسخ الكتب لتزويد المكتبات بها، وهو مصدر هام فى عملية بناء وتنمية المجموعات، حيث كان يصدر (ينسخ) من الكتاب نسخاً محدودة العدد، مما احتاج الأمر ـ عند طلب الكتاب لاقتنائه فى المكتبة ـ أن ينسخ مرة أخرى، وكان الحكم الثانى يستخدم فى مكتبته جيشاً من النساخين والمزخرفين والخطاطين الذين يعملون لحاجات المكتبة[١٣٧]. وكان يعمل فى مكتبة ابن فطيس ـ سالف الذكر ـ باستمرار ستة من النساخين لا يتقاضون أجرهم على ما ينسخون فقط، بل يتناولون أجراً ثابت القيمة، حتى لا تؤدى العجلة إلى الوقوع فى أخطاء فى الكتابة[١٣٨].

٣ ـ الوقف:

وكان يمثل مصدراً لا بأس به فى إغناء المكتبات بالمجموعات القيمة، وقد مر سلفاً أن القوم ـ سواء الحكام أو المحكومين ـ كانت لديهم الرغبة الشديدة فى وقف الكتب على مختلف معاهد التعليم وإنشاء المكتبات بها، حتى ينالوا الأجر والثواب (صدقة جارية) من جهة، ولإفادة طلاب العلم من جهة أخرى.

«وتنوع الوقف فشمل وقف مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمساجد والمشافى والمراصد والربط والخانقاهات، كما كان هناك نوع من الوقف يتمثل فى وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو ورثته، واهتم واقفوا المكتبات المستقلة أو تلك التى تكون فى مدارس أو مساجد بتوفير دخل مادى ثابت لها لصيانتها وترميمها، وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها، وعين بعضهم ريعاً يساعد على نماء المجموعة وازدهارها عبر السنين»[١٣٩].

من هذا النص نستطيع أن نستنتج ما يلى:

١ ـ أن الوقف لم يقتصر على كتب بعينها بل شمل مكتبات بأكملها.

٢ ـ أن الوقف لم يقتصر على المعاهد التعليمية بل شمل كل مؤسسات الخدمات الأخرى.

٣ ـ أن الوقف لم يكن فقط أثناء حياة الواقف بل بعد الوفاة أيضاً.

٤ ـ كان هناك موارد مالية ثابتة للصرف منها على مرتبات العاملين فى الوقف وأوجه الصرف الأخرى كالصيانة والترميم، علاوة على إنماء المجموعات المكتبية عن طريق الشراء.

وانتشرت خزائن الوقف حتى بلغ من انتشارها وتوافرها فى الأندلس «أن أبا حيان النحوى كان يعيب على مشترى الكتب ويقول الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أى كتاب أردته استعرته من خزائن الوقاف»(١٤٠).

٤ ـ الهبات والهدايا:

حرص أصحاب المكتبات فى الأندلس على اقتناء أكبر عدد ممكن من الكتب المخطوطة بخطوط مؤلفيها، فكانوا يستهدونها من المؤلفين، أو يرسل المؤلفون لهم هذه الكتب على سبيل الهدايا أو الاستجداء الأدبى وخاصة إذا وقعت من الشخص المهداة إليه موقعاً حسناً، وقد شاع فى الأندلس أن خير وسيلة للحصول على عمل أو نيل حظوة هى تقديم كتب للمسئولين لا توجد عندهم، وهكذا كانوا يهدون إليهم أعمالهم أو يقدمون إليهم نسخاً من مؤلفات أخرى نادرة، لدرجة أن أسقفاً من الأساقفة المسيحيين فى قرطبة أهدى إلى الحكم الثانى تقويماً للأعياد المسيحية الأسبانية، وهو كتاب ظريف حقاً قدر له أن يصل إلينا لحسن الحظ(١٤١).

وكان بعض العلماء يعطون الكتب لمن يطلبها ـ على سبيل الهبة ـ حتى ولو كان المطلوب مخطوطاً أصلياً نادراً تعد ملكيته شرفاً لمقتنيه، وهذا ما فعله عالم النبات المشهور «ابن الرومية» الذى ذاع صيته فى «شاطبة» فى جمع الكتب فى مختلف العلوم، وقد ساعده على ذلك غناه الفاحش وكرمه الزائد، فكان يعطى الكتب لمن يطلبها وذلك استجابة لرغبته فى أن يتعلم الآخرون(١٤٢).

فضلاً عن ذلك كانت تأتى كتب أجنبية من البلدان الأخرى هدية إلى الحكام المسلمين، وقد مر من ذى قبل أن أرسل أرمانيوس امبراطور الروم هدية إلى الخليفة الناصر لدين الله الأندلسى، وكانت عبارة عن كتابين هما: كتاب الحشائش المصورة لديسقوريدس والآخر كتاب هرموسيوس صاحب القصص(١٤٣).

وكانت الكتب التى تبعث بها الدول الأجنبية كهدايا إلى حكام الأندلس تحفاً فنية جميلة ذات زخرفة رائعة، ودائماً تكتب بحروف من ذهب، من أجل إظهار عظمة هذه الدول ورقيها الحضارى، فيذكر المقرى فى «نفح طيبه» أنه ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب القسطنطينية، وكان فى ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة (مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضاً) وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد صورة المسيح عليه السلام وعلى

الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة على الزجاج البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج(١٤٤).

٥ ـ المصادرة:

وتمثل المصادرة أحد المصادر غير الثابتة لإغناء خزانة من خزائن الكتب على حساب الكتب المصادرة، ففى بعض الأحيان دفع حرص البعض من أهل الأندلس إلى الحصول على الكتب التى يريدونها إلى استخدام العنف أو الالتجاء إلى النهب والمصادرة، كما فعل الأفارقة المتعصبون «فى المكتبة العلمية لأبى الحجاج المورينى من أهل إشبيلية»(١٤٥). وهذا المصدر الأخير (المصادرة) يعتبر طريقة استثنائية، وليست قاعدة عامة فى إغناء المكتبات الأندلسية وتزويدها بالكتب، ولم يكن غالباً أو يمثل الصورة الشائعة فى هذا المجال، وإنما كانت القاعدة الرئيسية فى بناء وتنمية مقتنيات المكتبات فى الأندلس تتبلور فى المصادر الأربعة الأولى وهى: الشراء ـ النسخ ـ الوقف ـ والهدايا.

٣/٤/٣ الجوانب الأساسية في إدارة المكتبة:

وتشمل هذه الجوانب العناصر التالية:

ا ـ المقر والأثاث:

لم يكن للمكتبات أبنية مستقلة خاصة بها فى بادئ الأمر، بل كانت المكتبة جزءاً غير مستقل من مبنى المؤسسة التى تنشأ فى كنفها، فمكتبات المساجد كان يخصص لها مكان معلوم فى المسجد، عبارة عن رف كبير أو أكثر داخل أحد جدران المسجد بحيث يكون ظاهراً للعيان، كذلك كان يخصص للمكتبات المدرسية حجرة من حجرات المدرسة، تكون معلومة للطلاب والمدرسين، والحال كذلك فى بقية المكتبات، أما المكتبات الخاصة التى ينشئها الأفراد فى منازلهم، فكانوا يخصصون لها مكاناً أو غرفة من غرف المنزل بعيدة عن عبث الأطفال، كما هو متبع ـ أحياناً ـ فى أيامنا هذه.

وكانت مكتبة الحكم تشغل إحدى أجنحة قصر الخلافة بقرطبه وكان هذا الجناح هو ما يعرف فى التاريخ باسم مكتبة الحكم أو مكتبة قرطبة الأموية، ومع أن المصادر التى بين أيدينا لا تمدنا بمعلومات وافية عن مبنى المكتبة ولا تسعفنا ـ حتى ـ فى وصف هذا المبنى إلا أنه من المرجع أن «مبناها قد لقى عناية فائقة من الناصر الذى عنى بقرطبة عناية فائقة حتى قيل أنه لم يبق فيه بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد أو بتزييد»(١٤٦). وحسبك ببناء يتسع لمجموعة من الكتب يبلغ عددها أربعمائة ألف كتاب كما تذكر جل المصادر، وأغلب الظن أن عدد غرف المكتبة كان كثيراً بحيث يتسع ـ إلى حد ما ـ لاستيعاب هذه المجموعات.

بيد أن هذه الغرف ضاقت بما تحتويه المكتبة

من الكتب، علاوة على عدم استيعابها للزيادة المطردة من الكتب، «ولهذا كان من الضرورى أن تنتقل المكتبة فى مكان آخر، وقد استغرقت عملية النقل هذه ستة أشهر كاملة، عمل خلالها عدد كبير من الأشخاص بجد واجتهاد»(١٤٧).

وكانت المكتبات فى هذا الزمن البعيد تزود بالأثاث المناسب الذى يساعد على عمليتى الاطلاع والبحث، ويعمل على توفير الراحة للرواد، من أمثلة هذا الأثاث البسط والسجاجيد والستائر السميكة، التى تقى من برد الشتاء القارص أو حر الصيف اللافح، كذلك زودت المكتبات بالأرفف اللازمة لتسكين الكتب، وكان أغلب هذه الأرفف من النوع المفتوحOpen shelves لإتاحة الوصول مباشرة للكتب، كما كان هناك بعض الأرفف المغلقة Closed shelves التى تحفظ فيها الكتب القيمة والثمينة لحمايتها من العبث أو السرقة.

٢ ـ الأقسام الرئيسية للمكتبة:

كانت المكتبات فى الأندلس ـ وخاصة الكبرى منها ـ تضم مجموعة من الأقسام التى تساعد على تيسير وتسيير دولاب العمل فيها، كما تعمل على تحقيق الأهداف المرجوة منها.

وبالرغم من التفاوت البين الموجود بين المكتبات فى عدد أقسامها، إلا أنها كانت تشترك فى توفر مجموعة من الأقسام كحد أدنى، فكان هناك قسم مسئول عن الاطلاع والخدمة المكتبية، وآخر تنصب مسئوليته على الكتب من حيث إعدادها فنياً وتسكينها على الرفوف، وثالث للعمليات المتعلقة بإنتاج الكتب كالتأليف والترجمة والنسخ وتوابعه. ورابع خاص بتأليف وترجمة الكتاب لحساب المكتبة.

وهذه الأقسام وغيرها مما يماثلها كانت توجد فى «مكتبة الحكم الثانى» بصورة أوضح، وفى ذلك يشير «المقرى» إليها باختصار فيقول «وقد جمع فى قصره (أى الحكم الثانى) الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والإجادة فى التجليد فأوعى فى ذلك كله...»(١٤٨).

وفي الفقرات التالية عرض مبسط لأهم أقسام المكتبة بهدف التعرف على كيفية إعداد الكتب سواء من حيث الإنتاج أو التنظيم.

• قسم التأليف:

لم تكن «مكتبة الحكم الثانى» مكتبة تقليدية بالمعنى الجارى فى أيامنا هذه، بل كانت مركزاً للبحث والدرس والتأليف والترجمة، لدرجة أن يحق لنا أن نطلق عليها «أكاديمية علمية» أو «مجمعاً علمياً» بالمعنى الشامل لهذه التسميات. ولعل قسم التأليف كان يعتبر أهم أقسام المكتبة، حيث كانت تقع على كاهله مسئولية تأليف الكتب فى مختلف المجالات لحساب المكتبة، فضلاً عن تزويدها بكل ما يصدر من مؤلفات سواء على المستوى المحلى (داخل الأندلس) أو الخارجى، لذا كان يعمل فى هذا القسم كل من يجد فى نفسه أنه أهل لذلك سواء بخبرته العملية أو دراساته العملية.

من ناحية التأليف كان يتم تكليف بعض علماء الأندلس للتأليف فى تخصصات معينة، ومن أمثلة ذلك تكليف محمد بن الحارث الخشنى لتأليف بعض الكتب للمكتبة، فقام بمهمته خير قيام وألف مجموعة ضخمة من الكتب نذكر منها: تاريخ قضاة قرطبة ـ فضائل الإمام مالك ـ مناقب سحنون ـ فقهاء المالكية ـ تاريخ الإفريقيين ـ الرواة عن مالك ـ التعريف ـ الاقتباس ـ الفتيا ـ الاتفاق والاختلاف فى مذهب مالك، وغيرها كثير ليس هنا مجال تجريده، وكانت هذه المؤلفات بإيعاز من الخليفة الناصر ومن بعده ابنه الحكم لتدعيم المذهب المالكى، مذهب أهل السنة والجماعة فى الأندلس، من أجل الوقوف أمام دعاة المذهب الاسماعيلى الذى حاول الفاطميون فى الشمال الإفريقى تسريبه إلى الأندلس(١٤٩).

ومن ناحية تزويد المكتبة بالمؤلفات الصادرة خارج الأندلس، كان القسم يراسل مندوبيه ـ أو كما نسميهم الموردين بمصطلحات العصر ـ ليوافوه بكل ما هو جديد، أو يراسل المؤلفين أنفسهم وخاصة فى المشرق الإسلامى وذلك عن طريق بعض الرسل المبعوثين على نفقة الدولة، ومن أهم الكتب الواردة عن هذا الطريق كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى.

فضلاً عن هاتين الناحيتين كانت مهمة مراسلة كبار الأساتذة خارج الأندلس تقع على عاتق القسم، لا بهدف الحصول على مؤلفاتهم، بل لإحضارهم شخصياً إلى الأندلس، بما يشبه عملية التعاقد فى أيامنا هذه، وهذا ما تم مع أبى على القالى صاحب كتاب الأمالى.

• قسم الترجمة:

تعتبر الترجمة نوعاً من التأليف المشترك ـ إلى حد ما ـ إذا صدقت النية وصح العزم، كما كانت مصدراً مهماً من مصادر تزويد المكتبة بالمصنفات فى الحضارات الأجنبية والفكر العالمى، ومن ثمّ اهتم القسم بترجمة أمهات الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، لذا عمل فى هذا القسم نخبة ممتازة من المترجمين الذين يجيدون اللغات الأجنبية خاصة اليونانية واللاتينية، نذكر منهم «عبد الله الصقلى ومحمد النباتى وأبا عثمان الجزار الملقب باليابسة ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم، وحسواى بن شبروط»(١٥٠) وغيرهم كثير. وعملت هذه المجموعة على نقل أهم المصنفات اليونانية إلى اللغة العربية وخاصة فى المجالات العلمية كالطب والهندسة والفلك.

• قسم التدقيق والمراجعة:

فتتبلور مسئولية القسم فى مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها سواء المؤلفة أو المترجمة، حتى تصبح خالية من نقص علمى أو عيب مادى، لذا كان يعمل فيه نخبة من العلماء المعروفين والمشهود لهم بغزارة علمهم وتميزهم فى كل تخصص، ومن خيرة العلماء الذين عملوا فى القسم نذكر منهم «الرياض محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النحوى، وأبو محمد بن أبى الحسين الفهرى القرطبى، ومحمد بن معمر الجيانى»(١٥١).

* قسم النسخ:

والنسخ وكل ما يتعلق به ـ كما ألمحنا سلفاً ـ كان بمثابة النشر وكل ما يرتبط به فى أيامنا هذه. وكان النسخ المصدر الوحيد لإنتاج الكتب فى عصر عزت فيه الطباعة، لذا اعتمدت كل المكتبات ـ فى هذا الزمن البعيد ـ فى بناء وتنمية مجموعاتها على ما تقذف به حركة النسخ فى أسواق الوراقين من مؤلفات فى مختلف المجالات.

وساعد ظهور الورق وانتشاره فى الأندلس على تأليف الكتب وتسهيل تداولها حيث اشتهرت «الأندلس خاصة بصنع الورق، وكان مركزه مدينة شاطبة التى كانت تصدره إلى أوروبا، وأول مصنع للورق أسس فى الأندلس سنة ٩٥٠م»(١٥٢). وإلحاق قسم النسخ بالمكتبات الإسلامية لتزويدها بالمؤلفات أولاً بأول، يعتبر من أرقى النظم التى وصلت إليها المكتبات فى العصر الحديث، حيث ألحقت بالمكتبات الحديثة ـ وخاصة الكبرى منها ـ مطبعة تتولى نشر الكتب التى تقوم بتحقيقها لجان علمية متخصصة، كما كان شأن دار الكتب المصرية فى عصرها الذهبى.

وعمل فى «مكتبة الحكم» بقسم النسخ عدد كبير من النساخين المهرة الذين يجيدون فن النسخ ويمتازون بجودة الخط فضلاً عن أمانة النقل، ومن المراجعين المتخصصين كل فى مجال تخصصه لمراجعة ما يتم نسخه، ومن المجلدين المهرة الذين يجيدون فن التجليد والزخرفة والتزيين.

* قسم العمليات الفنية:

ويقوم هذا القسم بعملية الإعداد الفنى للكتب من حيث فهرستها وتصنيفها من أجل تيسير تداولها وتسهيل تناولها من جانب مجتمع المستفيدين، وسيأتى الحديث عن هذه العمليات الفنية بشئ من بسط القول فيما بعد.

٣ـ الهيكل الوظيفى:

يقصد به فئات العاملين وتدرجهم فى السلم الوظيفى وتسكينهم فى أقسام المكتبة كل حسب وظيفته، حيث كان يعمل فى هذه الأقسام مجموعة من الفئات، يمكن بلورتها على النحو التالى:

* فئة مؤلفى الكتب وتشمل العلماء المتخصصين فى مختلف فروع المعرفة، والمترجمين.

* فئة منتجى الكتب وتشمل النساخين ومن فى حكمهم كالمراجعين والمجلدين والمزخرفين.

* فئة المتخصصين فى شئون المكتبات كالقائمين بالأعمال الفنية والخدمات المكتبية.

هذا بالإضافة إلى فئة العمال والسعاة الذين يقومون بعمليات الأمن والحراسة وتنظيم الفراش وأثاث المكتبة.

وكان يعمل الأفراد فى كل فئة تحت إشراف مسئول يتولى شئون العمل من حيث توزيعه عليهم وتجهيز مستلزماته، كالورق والأقلام والأحبار.

وكان يشرف على هؤلاء الأفراد جميعهم من الناحية العلمية والإدارية «خازن» وكانت وظيفته تماثل وظيفة رئيس المكتبة أو مدير المكتبة فى عصرنا الحالى، وكانت من الوظائف الكبرى فى القصر، وتحددت مسئولية الخازن فى رسم السياسة العامة للمكتبة والتخطيط لتزويدها بالمؤلفات الجديدة، مع الإشراف المباشر على حركة سير العمل بالمكتبة، والإيعاز بإعداد الفهارس والتأكد من دقتها وحسن تنظيم الكتب على الرفوف وحفظ السجلات، فضلاً عن العمل على تقديم الخدمة المكتبية بأفضل الطرق لرواد المكتبة وتيسير الاطلاع لهم، ورفع مستوى أداء العاملين فى المكتبة.

لذا كان يتولى وظيفة الخازن أحد أساطين العلماء أو أحد مشاهير الأدباء، بحيث يسمح علمه وتتيح ثقافته وخبرته القيام بهذه المسئوليات الجسام على أحسن صورة ممكنة، ولم تكن وظيفة الخازن عملاً إدارياً فحسب وانما هى عمل علمى بالدرجة الأولى، حيث كان بحكم وظيفته يتلقى الكتب الحديثة ويقرأ ما يشاء منها أو حتى يلقى عليها نظرة فاحصة تعينه على الإحاطة بموضوعاتها ومضامينها، ومن ثمّ يستطيع أن يوجه أنظار المهتمين بموضوع ما إلى الكتب والدراسات والأبحاث التى تعالج هذا الموضوع.

ومن الملاحظ أن جل المصادر ـ إن لم تكن كلها ـ التى تناولت مكتبة الحكم الثانى بالذكر قد أغفلت الحديث عن العاملين فى المكتبة وعن رجالها الذين كانوا يقومون بالخدمة المكتبية فيها، يستثنى من ذلك «ابن حزم» الذين أشار إلى اسم واحد من هؤلاء العاملين هو «تليد الفتى» الذى شغل منصب الخازن (مدير المكتبة)[١٥٣]. ومن منطق الأمور، وفى مكتبة على هذا القدر من الضخامة، لا تكتفى بواحد فى إدارتها ومن ثمّ كان هناك أكثر من واحد لإدارتها ـ إلى جانب تليد ـ من المتخصصين فى شئون المكتبات، وفى هذا يشير البعض إلى اسم خازن آخر و«كانت المكتبة فى القصر بقرطبة تحت إدارة قيمّ خصىّ يدعى بقية»[١٥٤].

وكانت «المكتبات الإسلامية الضخمة أو كثيرة الرواد لا تكتفى بتعيين خازن واحد، بل كانت تعين اثنان، أو يعين للخازن مساعداً أو أكثر ليتعاونوا جميعاً فى خدمة القراء وتيسير الاطلاع لهم»[١٥٥].

وهذا النظام معمول به فى المكتبات الكبرى فى عصرنا الحالى، وخاصة فى المكتبات الجامعية والوطنية، حيث يساعد مدير المكتبة اثنان من النواب أو أكثر، أحدهما لشئون العمليات الفنية، والأخر يتولى الخدمات المكتبية لمجتمع المستفيدين، والثالث ـ فى بعض المكتبات ـ يتولى الشئون الإدارية والمالية.

٤ ـ التمويل والموارد المالية للمكتبة:

تضن علينا المصادر على أنواعها بالمعلومات المتصلة بالنواحى المالية للمكتبات فى الأندلس عامة ومكتبة الحكم الثانى خاصة، وأغلب الظن أن عمليات تمويل هذه المكتبات كانت من

الأمور العادية التى يتبارى القوم بالصرف على المكتبات وشئونها بسخاء دون حساب، الأمر الذى لم يجعل وضع هذا الجانب فى حسبانهم أو حساباتهم، فاقتصاد الدولة الأندلسية كان قوياً، وميزانيتها كانت ضخمة (بلغت أكثر من ١٢ مليون دينار من الذهب) كما ألمحنا من قبل، فضلاً عن اهتمام القوم وشغفهم (حكاماً ومحكومين) بالكتب واقتنائها وبالمكتبات وإنشائها.

وهذه مؤشرات ذات دلالة قوية على كثرة ما كان ينفق على الكتب والمكتبات سواء من حيث شراء المجموعات، أو من صرف أجور العاملين فى هذه المكتبات أو حتى النثريات كالصيانة والمستلزمات الورقية والمكتبية والأدوات الكتابية.

وما كان ينفق من قبل الأفراد أو ما تخصصه الدولة للصرف على هذه المكتبات يعتبر من مصادر التمويل الثابتة التى تعتمد عليها المكتبات. ويجب أن لا يغيب عن البال أن ثمة ظاهرة كانت منتشرة وجارية فى الدول الإسلامية فى أزهى عصورها سواء فى الأندلس أو غيرها من الأصقاع الإسلامية الأخرى، ألا وهى «الأوقاف» وكانت تسمى «الأحباس»، ويمثل الوقف على أنواعه مصدراً طيباً ومورداً لا ينضب لتغطية نفقات المكتبات، فلم يكن الوقف قاصراً على وقف كتب أو مكتبات بعينها، بل كان يمتد ليشمل وقف ريع يساعد على تنمية مجموعات هذه المكتبات وصيانتها أو صرف مرتبات العاملين فيها، من أجل ضمان سيرورة العمل بها.

وقد تبلور العمل بنظام الأوقاف كنتيجة طبيعية للنهضة التعليمية والثقافية والاجتماعية التى شهدتها الأندلس.

وثمة مصدر ثالث لم يكن ثابتاً كسلفيه السابقين، وهو الهبات والإعانات، فكان أهل الخير المحبين للعلم وأهله ووسائله (الكتب والمكتبات) يجودون بأموالهم ـ على شكل هبات أو إعانات ـ تشجيعاً وعوناً لهذه المؤسسات التعليمية والخدمية ذات النفع العام لاستمراريتها فى أداء وظيفتها.

٣/٤/٤ التنظيم الفنى لمجموعات المكتبة:

فى محاولة لتلمس آليات العمل الفنى، من خلال تفحص واستنباط ما يعن عن مختلف المصادر، يمكن القول أن المكتبات فى الأندلس كانت تتبع نظماً معينة فى فهرسة مجموعاتها وتصنيفها، وإن اختلفت هذه النظم بين التبسيط غير المخل والتوسع المفيد غير المضر.

فمكتبة الحكم الثانى وهى على هذه الدرجة من الضخامة العددية والقوة الموضوعية، لابد أنها كانت تتبع نظاماً معيناً يجعل الاستفادة من كنوزها أمراً ميسوراً، وعماد هذا النظام هو الفهارس وخاصة الفهارس الموضوعية التى يعمد إليها المستفيد لمعرفة المصنفات فى مجال بحثه أو تخصصه، باعتبار الفهرس مفتاح المكتبة للتعرف والوصول إلى ما بها من أوعية المعلومات.

وقد أجمعت مختلف المصادر ـ قديمها وحديثها ـ على أن فهارس المكتبة التى فيها تسمية الكتب وأسماء المؤلفين بلغ عددها أربعة وأربعين فهرساً، وفى كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير(١٥٦).

ويفهم من النصوص الواردة بالمصادر التاريخية التى أشارت إلى فهارس المكتبة، أن هذه الفهارس كانت مرتبة ترتيباً موضوعياً، أى كان لكل موضوع فهارسه الخاصة به.

وإذا كانت فهارس دواوين الشعر تبلغ (٤٤) فهرساً، فكيف كان عدد فهارس الموضوعات الأخرى؟ أغلب الظن أن عدد فهارس كل موضوع كان يدور حول هذا الرقم أو نحو ذلك، إن لم يكن يزيد عنه.

وكانت البيانات المسجلة فى الفهارس الموضوعية تشتمل على أهم عنصرين من عناصر الفهرسة الوصفية، ألا وهما: عناوين الكتب وأسماء المؤلفين، وهما يكفيان لتحقيق ذاتية الكتاب من حيث تحديد ومعرفة عنوانه، ونسبته إلى مؤلفه.

بلغ عدد أوراق كل فهرس عشرون ورقة كما ذكرت جل المصادر ما عدا مصدر واحد ذكر أن عددها فى كل فهرس خمسون ورقة(١٥٧). ومن المفهوم أنه لا مغالاة فى هذا التقدير خصوصاً إذا ما تذكرنا أن المكتبة تضم ثلاث مكتبات معاً، وأن عدد مجموعاتها بلغ (٤٠٠ ألف) مجلد.

وإذا انتقلنا إلى التصنيف وهو صنو الفهرسة الموضوعية ـ للتعرف على طبيعة النظام المستخدم فى مكتبة الحكم خاصة والمكتبات الأندلسية الأخرى عامة، فإنه يشتم من خلال النص السابق بشأن الفهارس، أن المكتبة كانت تتبع نظام تصنيف معين فى ترتيب مجموعات الكتب، وأن هذا النظام كان قائماً ومبنياً على أساس موضوعى، وهذا الأساس يسمى ـ فى عصرنا الحاضر ـ بنظام التصنيف المنطقى أو الطبيعى.

ولا مغالاة فى القول بأن مكتبات الدولة الإسلامية فى أزهى عصورها كانت تستخدم خطة تصنيف موضوعية تعكس الثقافة العربية والإسلامية السائدة من خلال الموضوعات المطروقة آنذاك، وليس أدل على ذلك من خطة ترتيب «الفهرست» لابن النديم، وهى خطة وضعت فى إطار موضوعات الكتب الموجودة حينئذ، «ولذلك فمن المعتقد أن فهرست ابن النديم صورة واضحة لنظام التصنيف المطبق فى مكتبات ذلك الوقت، ووفقاً لهذا الاعتقاد فإن المكتبات أو مجموعات الكتب فى ذلك العصر كانت مقسمة إلى عشرة أقسام هى التى أسماها ابن النديم فى الفهرست مقالات، وهذه الأقسام الرئيسية مقسمة طبقاً لحاجات كل مكتبة»(١٥٨).

والأقسام العشرة ـ كما جاءت فى فهرست ابن النديم ـ هى:

القرآن ـ النحو ـ التاريخ ـ الشعر ـ العقائد ـ

الفقه ـ الفلسفة ـ السمر ـ الأديان ـ علم الصنعة.

وهذه الموضوعات (الأقسام العشرة) تعبير عن اعتراف ضمنى بوجود نظام تصنيف كان مطبقاً فى تنظيم الكتب فى المكتبات وخاصة المكتبات الكبرى كمكتبة الحكم الثانى.

ولا مغالاة فى القول ـ أيضاً ـ بأن ملفيل ديوى صاحب التصنيف العشرى، قد استفاد أيما استفادة فى عملية تقسيم تصنيفه إلى عشريات من طريقة ابن النديم، وهو أمر قائم وغير مستبعد ما لم توجد دلائل تنفيه أو تثبت عكس ذلك.

٥/٣ بعض القضايا المتعلقة بالمكتبات فى الأندلس

ثمة مجموعة من القضايا التى ارتبطت بالمكتبات فى الأندلس، أثرت فيها بصورة أو بأخرى سواء إيجابا أو سلباً، **نسجل أهمها باختصار فيما يلى:**

١/٥/٣ أهداف المكتبات واغراضها:

تكاد تكون أهداف المكتبات وأغراضها واحدة وأن اختلف الزمان وتباين المكان، بيد أن نوعية المكتبة ذاتها تزيد هدفاً هنا أو ينقص هدفاً هناك، **ومن أهداف المكتبات الإسلامية فى الأندلس والتى تعتبر كأهداف مشتركة فيما بينها نجد ما يلى:**

• أهداف تربوية وتعليمية:

كانت المكتبات ولا تزال مركزاً للتربية والتعليم، وخاصة فى المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات، حيث تبلور دورها فى مساندة وتدعيم المناهج الدراسية فى هذه المؤسسات، وعملت على تعميق وتحقيق الأهداف التعليمية والتربوية التى خطتها لنفسها هذه المؤسسات التعليمية، لدرجة أن أصبح يقاس مدى جودة المكتبات بمدى فعاليتها فى تحقيق أغراض العملية التعليمية.

• أهداف دينية:

نشأت المكتبات الإسلامية مع نشأة المساجد، ومن ثم دارت فى فلكها وعملت على تحقيق أهدافها الدينية، المتمثلة فى تكوين الشخصية الإسلامية، وتعليم الناس أمور دينهم، وتثقيفهم ثقافة دينية، وبناء المجتمع الإسلامى الفاضل القائم على الأخلاق والتقوى والصلاح والعلم، وهذا أمر طبيعى طالما أن الإسلام يدعو إلى العلم ويقدر قيمة العلماء، ومن هنا عملت المكتبات الإسلامية على تحقيق هذا الجانب بصورة ناضجة بما قدمته من مصادر معلومات فى مختلف المجالات المعرفية، وخاصة العلوم الدينية والشرعية التى كانت وراء بناء الفرد وتكوينه وتشكيله وفق منهج الشريعة الإسلامية الغراء.

• أهداف علمية:

لم يقتصر دور المكتبات الإسلامية على تعليم الأمور الدينية فحسب، بل كانت إلى جانب هذا مركزاً من مراكز البحث والدرس فكان يقصدها كبار العلماء والباحثين لعقد الندوات

والمناظرات العلمية، أو إعداد البحوث والدراسات والعمل على نشرها بين أكبر قاعدة من المستفيدين، هذا فضلاً عن إتصالاتها العلمية بمراكز البحوث، ونظيراتها من المكتبات الأخرى.

• أهداف حضارية:

ويقصد بها النقلة الحضارية للمجتمع الإسلامى من حالة البداوة إلى حالة التحضر، ويتمثل دور المكتبة فى النقلة الحضارية فى بث العلم ونشر المعرفة وإرساء دعائم النهضة العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها من دعائم نهضة المجتمع وتطوره، ويجب أن لا يغيب عن البال أن النهضة الحضارية للمجتمع الإسلامى لم تنصب فقط على العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدبية، بل شملت أيضا العلوم البحتة والتطبيقية كالصناعات والهندسة والرياضيات والفلك والكيمياء والطب والصيدلة وعلوم الفلاحة (الزراعة)، فضلاً عن أن دور المكتبة الحضارى كان يقتضى مؤازرة حركة البحوث العلمية إعداداً ونشراً وتبادلاً مع المكتبات والمراكز الحضارية الأخرى.

• أهداف اجتماعية:

كانت المكتبات الإسلامية منتدى اجتماعياً، يجتمع فيه الناس يمارسون فيه حياة اجتماعية على مستوى عالٍ من الرقى، حتى غدت المكتبات بحق منتدى المتأدبين والعلماء ومجمع الغائبين والقادمين ومحور المتفقهين ومقصد الدعاة والمصلحين، فضلاً عن كونها جزءاً من النظام الاتصالى لمجتمع المستفيدين.

• أهداف معرفية وتثقيفية :

حيث كان من بين أغراض المكتبات الإسلامية الاطلاع والقراءة الحرة للتثقيف والترفيه واكتساب المعلومات المفيدة وتزجية وقت الفراغ فيما يعود على القراء بالنفع ونشر المعرفة وتعميم العلوم النافعة، فضلاً عن تنمية ميول الأفراد نحو القراءة وتكوين وغرس العادات القرائية الجيدة لديهم.

٣/٥/٣ حجم المقتنيات وأنواعها:

لا تسعفنا المصادر المتاحة بين أيدينا بالتعرف على حجم مقتنيات المكتبات الإسلامية فى الأندلس، أو حتى معرفة أنواع هذه المقتنيات من حيث الشكل أو من حيث المضمون للتعرف على قوة وضعف هذه المجموعات، ومع ذلك فجل النصوص المتوفرة تشير بصورة غير مباشرة إلى أن مجموعات المقتنيات فى هذه المكتبات لم تكن قليلة بحال من الأحوال، بل كانت على العكس ضخمة من حيث الحجم ومتنوعة من حيث المحتوى، وكان وراء هذه الزيادات المطردة حب وشغف الأندلسيين بجمع الكتب كما سبق القول.

وكانت مكتبة الحكم الثانى ـ باعتبارها النموذج المحتذى للمكتبات فى الأندلس ـ تجمع بين جنباتها عدداً ضخماً من المجلدات، اختلفت المصادر فى تقديره، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فى تحديد هذه الضخامة رقمياً، نجد أن لغة الأرقام ـ والرقم مخ العلم كما يقال ـ تحدثنا عن محتويات هذه المكتبة العريقة وتقول «أنها

كانت أربعمائة ألف مجلد»[١٥٩] بل وصل بها أحدهم إلى أكثر من ذلك فقال «وكان فى مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ستمائة ألف كتاب»[١٦٠].

وبالرغم من هذا الاختلاف الواضح بين هذين الرقمين فى تحديد أعداد الكتب التى ضمتها مكتبة الحكم، فإننا نستنتج من ذلك حقيقة ثابتة هى أن هذه المكتبة كانت من الضخامة والاتساع بحيث تستطيع منافسة كبريات المكتبات فى عصرنا الحاضر.

وثمة مؤشر آخر يدلنا على ضخامة المكتبة، ألا وهو الوقت الذى استغرقته فى نقلها إلى المبنى الجديد عندما ضاق مبناها الأول بمجموعاتها، حيث استغرقت عملية النقل هذه ستة أشهر[١٦١].

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن أحجام الكتب المقتناه فى المكتبة ـ وكذلك الحال فى بقية المكتبات الأندلسية ـ كانت متفاوتة، فبعضها لايزيد عن أوراق قلائل، بينما كانت أوراق بعضها الآخر يزيد عن الألف ورقة.

وقد أورد بعض المصادر أن الحكم الثانى اطلع على هذه الأربعمائة ألف مجلد «وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله منه قراءة أو نظر فى أى فن ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتى بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن»[١٦٢].

وهذا قول يبدو مبالغاً فيه إلى حد ما، فقراءته لكل هذه الكتب الأربعمائة ألف وتعليقه على جلها إن لم تكن كلها موضع شك، ومع ذلك فإن عنايته بالمكتبة من حيث الشكل والمضمون شئ ثابت.

وبالرغم من عدم وجود إشارات مرجعية كافية فى المصادر التاريخية تبين العلاقة أو الأهمية النسبية لموضوعات الكتب المقتناة فى المكتبات، بالرغم من ذلك يمكن القول أن موضوعات العلوم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، تدور حول العلوم النقلية كالدين الإسلامى وعلومه، واللغة العربية وعلومها، والعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة والفلك والطب والصيدلة والكيمياء وما شابه.

ولم تكن مكتبة الحكم هى الوحيدة فى الأندلس التى تضم مجموعات ضخمة من المواد المكتبية، وإنما كانت هناك مكتبات أخرى كثيرة بها مجموعات كبيرة من الكتب، ويضيق المكان هنا لتفريدها والحديث عنها تفصيلاً، لذا سنكتفى بالإشارة إلى واحدة منها يمتلكها أحد الرعايا المسلمين، ألا وهى مكتبة ابن فطيس، الذى شيد مبنى خاصة لمكتبته على أحدث التصميمات، بحيث يسمح برؤية جميع الكتب من مكان واحد، وهذا النظام أخذت به معظم المكتبات ـ وخاصاً المكتبات الكبرى ـ فى الدول الأوروبية. وللدلالة على ضخامة مقتنيات المكتبة يتبين ذلك من المدة التى استغرقتها فى بيع مجموعاتها ومقدار ثمن هذه المجموعات، «حيث اجتمع أهل قرطبة لبيع كتبها لمدة عام كامل فى مسجده، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية»[١٦٣].

٣/٥/٣ الخدمات المكتبية وآدابها:

كانت الخدمات المكتبية التى تقدمها المكتبات الأندلسية تدور حول الخدمات التقليدية المعروفة لدينا فى أيامنا هذه ـ أن لم تكن تفوقها ـ سواء أكانت خدمات مباشرة أو غير مباشرة، كالاطلاع الداخلى والإرشاد المرجعى والتوجيه القرائى والاستعارة الخارجية... إلخ، فضلاً عن تسهيل مهمة الباحث وتذليل متطلبات البحث له، من توفير الكتب المطلوبة، والأوراق والأقلام والأحبار بالمجان.

وكان ارتياد المكتبات للقراءة والبحث مباحاً وميسراً دون أية إجراءات روتينية تحول بين القارئ ومصادره.

وكانت الاستعارة الخارجية تتأرجح بين الإباحة والمنع، وذلك باختلاف الظروف كندرة الكتاب أو وفرة النسخ، فضلاً عن سمعة المستعير ومكانته الاجتماعية والعلمية، فمن المكتبات من قيدها برهن حرصاً أو خوفاً منها على الكتب من الضياع، ومنها من سمح بها دون مقابل أو قيد أو شرط، باعتبار أن عائد الفائدة العلمية على القارئ لا يقدر بمال، ومنها من منعها منعاً باتاً.

ومع ذلك يبدو أن القاعدة العامة كانت السماح بإعارة الكتب خارجياً للأفراد الموثوقين فيهم من العلماء وعلية القوم.

ولم تقتصر إعارة الكتب من قبل المكتبات على الأفراد، بل امتدت لتشمل إعارة الكتب بين هذه المكتبات بعضها والبعض الآخر، وهذا ما نطلق عليه «الإعارة الداخلية بين المكتبات-Interli أو Inter - Library Lending brary Ioan.

ومن الأمور الطريفة فى هذا المجال، كانت توجد إعارة بين العلماء أو الأدباء بعضهم والبعض الآخر، فقد «جرت العادة أن يستعير الأدباء بعضهم من بعض كثيراً من الكتب، وقد كان بعضهم ضنينياً بكتبه ولا سيما الأصول منها، لايعيرها البتة كالقاضى أبى المطرف الأندلسى... وكان إذا ألحف عليه إنسان فى طلب الإعارة ينسخ له الكتاب المطلوب ويعطيه النسخة المنسوخة لا الأصل، فى حين وجد آخرون كانوا كرماء وأسخياء فى إعارة الكتب ولاسيما لطلاب العلم»(١٦٤).

من هذا النص نستنتج ما يلي:

١ ـ أن الاعارة بين الأدباء كانت قاعدة أو عرف جارى، ولما كان لكل قاعدة استثناء كما يقال، فكان هناك قلة ضنت بما لديها من الكتب على الآخرين.

٢ ـ أن أصول الكتب ـ فى الغالب الأعم ـ لم يكن مسموح بإعارتها خارجياً، لأنها نسخة فريدة أو نسخة وحيدة Unique Copy وهذا المبدأ معمول به فى أيامنا هذه حيث لا تسمح المكتبات على أنواعها بإعارة النسخة الوحيدة والإبقاء عليها داخل المكتبة لاستخدام القراء.

٣ ـ كان هناك نوع من التسهيلات بشأن إعارة الكتب خارجياً لطلاب العلم، باعتبارهم

فى أول السلم التعليمى ويحتاجون ـ قبل غيرهم ـ إلى الكتب للدراسة أو البحث، فضلاً عن ضيق ذات أيديهم ـ فى مثل هذه الظروف ـ فهم مبتدئون فى الحياة العملية والعلمية.

وتردد على المكتبات فى الأندلس نخبة ممتازة من العلماء والأدباء وطلاب الدراسة والبحث للاطلاع وإعداد البحوث والتأليف فى فنون المعرفة المختلفة مستفيدين من مقتنيات هذه المكتبات، ونذكر من هؤلاء أبا على القالى صاحب كتاب الأمالى، ومنذر بن سعيد البلوطى قاضى قرطبة، والزبيدى النحوى المشهور صاحب «أخبار النحويين» وغيرهم من الأدباء والعلماء وطلاب العلم.

وكان لإعارة الكتب سواء الداخلية أو الخارجية نظمها التى تحكمها، وآدابها التى تدل على رفعة أخلاق مجتمع المستفيدين، كما تدل ـ فى ذات الوقت ـ على مصداقية هؤلاء القوم فى البحث العلمى الجاد والاطلاع المثمر، من هذه المبادئ عدم العبث بالكتب سواء بالكشط أو المحو أو التعليق، فكان ينبغى على المستعير «المحافظة على الكتاب ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ولا يحشى ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه أو خواتمه أو هوامشه إلا إذا علم رضا صاحبه ولايعيره لغيره، ولا يدفعه ضماناً لشئ... ولايطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة، بل يرده إذا قضى حاجته، أو انتهت المدة التى أذن له بها... وهى لاتتجاوز شهرين»(١٦٥).

وهكذا تكون الأمانة العلمية بكل ما تحمله من معان، وما أحوجنا اليها فى أيامنا هذه، التى انقلبت فيها المعايير، وطغى عصر التصوير الضوئى الذى ساعد على اقتناص جهد الباحثين الجادين والعلماء المخلصين.

وغدت هذه المبادئ عند رواد المكتبات الإسلامية كالمثل السائر الذى صاغوه قالباً فى أحلى الكلام (الشعر) ونفذوه فعلاً فى الواقع المكتبى، ولنذكر بعضاً من هذه الأشعار.

❑ أيها المستعير منى كتابا

ارض لى فيه ما لنفسك ترضى

لا ترى ردّ ما أعرتك نفلا

وترى ردّ ما استعرتك فرضا

ويقول آخر:

❑ أيها المستعير منى كتابا

إن رددت الكتاب كان صوابا

أنت والله إن رددت كتابا

كنت أُعطيتَهُ أخذت كتابا

وغيرها كثير يضيق المكان لذكرها، وكلها تشجع وتحفز على حركة تداول الكتب والمحافظة عليها.

٤/٥/٣ نهاية المكتبات ومصيرها:

بعد هذا الماضى الزاهر للحضارة الإسلامية فى الأندلس، وللمكتبات الأندلسية التى تعتبر أول دعائم هذه الحضارة، ويشهد التاريخ على ذلك، فانتشرت المعارف والفنون فى البلاد،

وكثر عدد المتعلمين والعلماء والفقهاء والأدباء، وسادت القيم العليا، وتضوعت الحياة بأجمل المعانى وأروع الفضائل الإنسانية، وكان التقدم العلمى الجارف فى مختلف المجالات العلمية.

وبعد كل هذا، فإن دوام الحال من المحال، فجاءت الأحداث بما لا تشتهى السُّفن كما يقولون، فظهرت الفتن والصراعات وتوالت على الخلافة الأموية تنشب أظفارها فى مجدها الحضارى فقضت عليها وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً، وانقسمت البلاد إلى دويلات ضعيفة، وبدأ فى التاريخ ما يعرف بعصر الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ)، ونهبت الكتب وبيع بعضها، ووزع بعضها الآخر، وأحرق بعضها الثالث. فماذا حدث ولماذا حدث وما نتيجة ما حدث؟!.

فى الفقرات التالية عرض مبسط فى محاولة للإجابة على هذه التساؤلات. مع التركيز ـ بطبيعة الحال ـ على وضعية الكتب والمكتبات وما آلت إليه.

فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى بدأ انهيار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس نتيجة لتضافر عوامل كثيرة، حتى سقطت الخلافة الأموية نهائياً سنة (٤٢٢هـ ـ ١٠٣١م) وتفككت الوحدة السياسية للبلاد التى كانت إيذاناً وارهاصاً فى بداية النهاية لدولة الإسلام فى الأندلس.

ويرجع المؤرخون ذلك إلى عدة أسباب نجملها فيما يلى:(١٦٦)

١ ـ أسباب متعلقة بنظام الحكم:

عندما توفى الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ)، آخر الخلفاء العظام، خلفه ابنه هشام المؤيد (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ) وكان طفلاً، فقامت أمه السيدة «صبح» بالوصايا عليه، ومن هنا بدأ حريم القصر التدخل فى الأمور السياسية، فاختارت «محمد بن أبى عامر» حاجباً للدولة والذى تلقب فيما بعد بـ «المنصور»، وقد نجح ابن أبى عامر فى حجب الخليفة صاحب السلطة الشرعية عن ممارسة سلطاته، مما أدى إلى الاستهانة بمركزه، وحجبه عن الشعب واستأثر هو بالسلطة، واتجه بالبلاد اتجاهاً عسكرياً. وخلفه ابنه عبد الملك (٣٩٢ ـ ٣٩٩هـ) الذى نهج منهج أبيه، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن وكان مستهتراً ماجناً، فكان سبباً فى نهاية حكم العامريين وانقراض دولتهم. ثم تبع ذلك عصر من الفوضى عانت فيه البلاد فتناً واضطرابات كثيرة، وتناوب على حكم البلاد سلسلة من الخلفاء المحليين الضعفاء الذين يعرفون تاريخياً بملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ)، واستبدوا فى البلاد حتى أوصلوها إلى حالة من التمزق والفوضى.

٢ ـ أسباب عسكرية:

ومنها الحروب الخارجية التى خاضها شعب الأندلس فى عهد ابن أبى عامر المنصور مع الممالك المسيحية، وكانت سلسلة متصلة لم تنقطع، كانت فى كل عام غزوتين الأولى فى الربيع والثانية فى الخريف، حتى بلغت سبعاً

وخمسين غزوة، ولنا أن نتصور تكاليف الجيش اللازم لخوض كل هذه الغزوات، وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى الحروب الداخلية فى أسبانيا المسيحية بسبب التنافس على الحكم والتنازع على العرش، ولم تتوقف هذه الحروب بين الولايات الأسبانية إلا بعد زواج الأمير «فرناندو» بن خوان الثانى ملك أراغوان بابنة عمه الأميرة «إيزابيلا» فى ١٨ أكتوبر ١٤٦٩م، وكان هذا الزواج إيذانًا بتوحيد مملكتى أراغون وقشتالة، وفعلاً تمكن الملكان ـ أو الزوجان ـ الجديدان فرناندو وإيزابيلا من توحيد مملكتهما سنة ١٤٧٩م، وكرسا جهودهما فيما بعد لمحاربة الممالك التى كانت فى أيدى المسلمين حتى قضوا على آخر معقل لهم وهى غرناطة، وكان ذلك سنة ١٤٩٢م، وحل الصليب على أبراج غرناطة محل الهلال.

٣ ـ أسباب اجتماعية:

ومنها الدور الخطير الذى لعبه البربر ـ الذين كانوا يكونون إحدى الطوائف الحاكمة فى الأندلس ـ فى سقوط الخلافة فى الأندلس والقضاء على أصحاب البيوتات الأندلسية التى كانت بمثابة أركان الدولة الثابتة، واستبدوا بالشعب واستولوا على خيراته.

٤ ـ أسباب اقتصادية:

حيث عم البلاد خراب اقتصادى بسبب كثرة الإنفاق والإسراف لدرجة أثرت على أحوال البلاد الاقتصادية مع بداية القرن الخامس الهجرى.

تضافرت هذه العوامل وغيرها مما يماثلها فى تقويض صرح الحضارة الإسلامية فى الأندلس ومحو معالمها وكانت المكتبات بما تزخر به من الكتب أول المعالم التى أضيرت من جراء الصراعات القائمة فى البلاد بين الحكام بعضهم والبعض الآخر، والحروب القائمة ـ بعد ذلك ـ بين الحكام وبين الولايات الأسبانية التى تمكنت من القضاء على الخلافة الإسلامية فى الأندلس نهائياً سنة ١٤٩٢م.

وقد أصيبت حركة الكتب والمكتبات في الأندلس بنكسات ومحن كثيرة، يمكن إدراجها تحت نقطتين هما:

الأولى: عمليات الإحراق:

وكانت أكثر ما أصاب الكتب والمكتبات، واتخذت هذه العمليات مناحي عدة منها:

*** إحراق من أجل التقرب إلى فئات الشعب:**

حيث عمد ابن أبى عامر ـ الذى اغتصب حكم البلاد ـ إلى مكتبة الحكم الجامعة لكل العلوم، وأمر بإخراج ما فى جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى المنطق والفلسفة والنجوم وغير ذلك من علوم الأوائل (يقصد بها علوم الإغريق) وأمر بإحراقها، وفعل ذلك تحببا وتقرباً إلى عوام الأندلس وارضاء للفقهاء وكسباً لعطفهم وتأييدهم، وتقبيحاً لمذهب «الحكم» عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم(١٦٧).

*** إحراق بسبب العقيدة الدينية:**

استمر إحراق المخطوطات فى أسبانيا طوال

عدة قرون، درجة أن أصبح عيداً سنوياً واحتفالاً شعبياً، ويبرر خوليان المستشرق الأسبانى ذلك بقوله «يجب ألا نظن أن ذلك كان نتيجة لاحتقار العلوم، أو حقد منا على المسلمين وعلومهم، بل العكس فإن ذلك كان بفضل الحماس المتزايد أو المبادئ المغالى فيها وهى ميزة خاصة فى شعبنا».[١٦٨] ويقصد هنا بالمبادئ المذاهب الدينية وانتشارها وخاصة التى تتعارض مع المعتقدات التى ترى العامة سلامتها وصحتها، وذلك لقوة تأثير الكتب كوسيلة أو أداة لنشر الأفكار، لذا قام الشعب بإيعاز من الحكام إلى إحراقها لمنع انتشار ما تحمله من أفكار. وهذا مؤشر صدق على القيمة الحقيقية للكتب كوسيلة اتصال مؤثرة فى الرأى العام. ومن الذين تم إحراق كتبهم وفقاً لهذه الطريقة ـ أى بسبب معتقداتهم الدينية وحريتهم الفكرية ـ ابن مسرّه الفيلسوف، وابن كليب الذى أدخل المذهب الفلسفى القائل بالاختيار ضد الجبرية، وابن حزم الفقيه مؤسس علم الأديان المقارن وذلك بكتابه الشهير «الملل والنحل»، وابن رشد الفيلسوف الكبير، والغزالى الذى أمر أمير المسلمين فى الأندلس بإحراق كتبه، فدعى عليه الغزالى بقوله «ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا».[١٦٩] فكان أن نال أمير المسلمين ما دعاه عليه الغزالى.

• إحراق بسبب التعصب وطمس الهوية الإسلامية:

من أشهر الحرائق التى حدثت للكتب والمكتبات العربية فى الأندلس، بل كانت أكبر الأعمال التخريبية، الحريق الذى اضرم فى ميدان باب الرملة بمدينة غرناطة، ذلك أن السياسة الأسبانية بدأت فى تنفيذ خطتها ـ بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ـ المبنية على تنصير المسلمين والقضاء على مقوماتهم الروحية وآثارهم الفكرية، لكى يحرم أبناء الأمة المغلوبة من قوتهم الروحية والعقلية. فبالرغم من أن أحد شروط معاهدة الصلح بين الطرفين كان ينص على محافظة ملك الأسبان على الكتب العربية وإبقائها فى يد أصحابها العرب المسلمين، بالرغم من ذلك إلا أن الكردينال خمنيس مطران طليطلة جمع الإنتاج الفكرى الأندلسى من جميع أنحاء البلاد، وتكدست فى ساحات غرناطة، واحتفل بإحراقها فى ميدان الرملة. وبلغ ما هلك من الكتب العربية فى تلك المحنة أكثر من مائة ألف مخطوط وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالا.[١٧٠] ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل حدث حريق آخر للكتب العربية سنة ١٥١١م بناء على قرار الملكة «خوانا» الذى أجبر الموريسكيين ـ وهم عرب أسبانيا الذين أجبروا على التنصر ـ على إخراج ما لديهم من الكتب العربية فى الدين والقانون لحرقها، وقد حدث الشئ نفسه فى كل من مدن أسبانيا بتعصب طوال أكثر من نصف قرن من أجل محو الشخصية الإسلامية العربية من الوجود الأسبانى.

• إحراق وتلف نتيجة بعض الظروف الطارئة:

وهذا ما حدث للفقيه النحوى عبد الرحمن

بن موسى الهوارى الذى رحل إلى المشرق، وعند عودته إلى الأندلس عطف نحو مدينة بها تدمير وحريق فأودت بكتبه، فأقبل إلى الشيوخ يهنئونه بسلامة القدوم ويعزونه بذهاب كتبه، فقال لهم: ذهب الخُرج وبقى ما فى الدَّرج، أنا شَعْبىّ زمانى، فليسألنى مَنْ شاء[١٧١]. ففقدان الكتب مسألة لا تختلف عن فقدان شخص عزيز أو صديق حميم، لدرجة أن يتسارع الناس لتعزية صاحبها فى هذا الفقيد الغالى وصدق القائل: وخير جليس (صديق) فى الزمان كتاب.

*** إحراق بسبب كراهية الكتب:**

وهذه لم تكن ظاهرة منتشرة فى بلاد الأندلس كانتشارها فى بقية البلاد الإسلامية، ولكنها كانت موجودة بصورة محدودة، فبالرغم من حب المسلمين فى الأندلس للكتب والمكتبات وتقديرهم لدورهما الخطير وشغفهم بالكتب جمعاً وحفظاً واعتناءً، بالرغم من هذا إلا أنها كانت توجد أمثلة استثنائية يدعو أصحابها إلى عدم المغالاة فى ذلك الحب، وعدم الاعتماد الكلى على الكتب كمصدر للتفاخر. وقد مر ـ من قبل ـ التنويه إلى مقدرة الأندلسيين على حفظ الكتب فى صدورهم، على أساس أن العلم فى الصدور لا فى السطور، وفى ذلك يقول قائلهم:

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب
فلا تكن مغرماً بالهو واللعب
فاحفظه وافهمه واعمل كى تفوز به
فالعلم لا يجتنى إلا مع التعب[١٧٢]

ويرجع أحد البّحاثة الكبار كراهية نفر من المؤلفين لكتبهم وإحراقها فى أصقاع الدولة الإسلامية إلى ثلاثة عوامل هى:[١٧٣]

١ ـ الخوف من أن تضل هذه الكتب أصحابها.

٢ ـ الخوف من تحمل مسئولية أوزار ما يكتبون أمام الله لو ضل الناس بسبب سوء فهمهم لهذه الكتب.

٣ ـ الضن بهذه الكتب على من لا يعرف قدرها ومن لا يستحقها.

وبالرغم من هذا فان الصورة المشرقة للحركة العلمية فى الأندلس نشطت وازدهرت وآتت ثمارها فى شكل مصنفات تعتبر من أمهات الكتب فى مختلف الميادين العلمية، وفى شكل مكتبات رائعة سرت بحديثها الركبان ـ كما يقولون ـ من أقاص الشرق إلى أقاص الغرب.

الثانية: عمليات نقل الكتب خارج البلاد:

تعتبر هذه العمليات من أهم العوامل التى تؤثر سلباً على وضعية الكتب والمكتبات فى بلد ما، ذلك أن نقل الكتب من بلد إلى آخر معناه تفريغ ثقافى وعلمى وحضارى وتراثى لهذا البلد المنقول منه الكتب.

ويجب التفريق هنا بين عمليتى تصدير واستيراد الكتب وبين نقل الكتب وإخراجها من بلد ما، فالاولى تساعد على تنشيط حركة الكتب وتنوع مجموعات المكتبات، وتؤدى إلى التلاقح الفكرى والثقافى بين البلاد، الذى يتولد

عنه قدر مشترك من التفاهم الثقافى والمعارف العلمية بين البلاد بعضها والبعض الآخر. أما الثانية (نقل الكتب) فهى قريبة من النهب والسرقة أكثر منها إلى التبادل والإهداء والاقتناء.

وقد حدث للتراث العربى على مر العصور وفى كل البلاد العربية والإسلامية التى وطأتها أقدام المستعمرين، أشياء كثيرة تندرج تحت العملية الثانية هذه.

والأندلس كأحد البلاد الإسلامية، بل يكاد يكون يكون أعظم البلاد قاطبة، حدث لإنتاجه من الكتب ولمنشآته من المكتبات عمليات نقل ونهب كثيرة. واتخذت هذه العمليات أشكال عدة نسجلها باختصار على النحو التالى:

*** نقل الكتب إلى بلاد المشرق:**

حيث هاجر عدد كبير من علماء الأندلس إلى مختلف بلاد المشرق بسبب الظروف السيئة التى مرت بها البلاد والحروب القائمة بين الأمراء الأندلسيين والملوك الأسبان، ونقل هؤلاء العلماء معهم كثير من الكتب، ويشير «خوليان»(١٧٤) إلى جمّاع الكتب الأسبانى عطية بن سعيد بن عبد الله، الذى طاف بالمشرق وجمع كتباً كثيرة حملها على قافلة من عدة جمال نقلها إلى البلاد التى طاف بها.

*** نقل الكتب إلى بلاد المغرب العربى:**

نتيجة للفتن والصراعات القائمة فى البلاد، هرب كثير من العلماء الأندلسيين إلى شمال إفريقيا وبخاصة المغرب، ونقلوا معهم كتباً كثيرة، ولم يقتصر الأمر عند حد نقل الكتب، بل تعداه إلى نقل مكتبات بأكملها، مثل «مكتبة أسرة ملجوم المغربية، وأصلها من شرق الأندلس والتى كانت تحتوى على دفاتر جليلة الشأن لم يكن لأحد من أهل العصر مثلها، قد جمعها صاحبها فى أسبانيا وهو عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عيسى الأزدى الأهوانى»(١٧٥).

*** نقل الكتب داخل البلاد:**

وذلك عن طريق نهبها من قبل البربر ومن على شاكلتهم، مثل ما حدث لمكتبة الحكم الثانى، التى وزع الجزء الأكبر من كنوزها الأدبية ومصنفاتها العلمية على الحكام وملوك الطوائف فى أنحاء البلاد فى أشبيلية وقرطبة والمرية وغيرها من المدن.

هذا فضلاً عما نهبه الأجانب من دول أوروبا الغربية من أثمن المخطوطات الأندلسية وأفضل ما فى المكتبات الإسلامية وذلك قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.

بعد استعراض ما تقدم، تجدر الإشارة إلى نقطة هامة، ألا وهى أن شعوب أوروبا بدأت منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى تشق طريقها فى مضمار الحضارة والصناعة والتقنية، فقد نفضت عن نفسها غبار الخمول، وتفتحت عيونها على آفاق جديدة من العلم والتقدم بعد دهور من التأخر والانحطاط الفكرى والسياسى.

أما الشعوب العربية والإسلامية فقد كانت تتعثر فى مسيرتها وكأنها لم تعرف كيف تستفيد من مواردها وتراثها ومن الاكتشافات العلمية لعلمائها، أو حتى تستفيد من بوادر النهضة التى سادت شعوب أوروبا.

خاتمة الدراسة

باسم الله بدأنا وبحمده نختتم هذه الدراسة التى تناولت واحدة من أهم الدعامات التى قامت عليها النهضة الإسلامية فى الأندلس ألا وهى «الكتب والمكتبات» باعتبارها مصدراً للعلم وموئلاً للعلماء.

فقد كرم الله العلم والعلماء، وحث الإسلام على طلب العلم، وتقبل المسلمون الأوائل هذه الدعوة بالاستجابة الصادقة والجهد المتواصل، ولم تقتصر دلالات هذه الدعوة على معنى القراءة والكتابة، بل امتدت إلى فروع شتى لتشكل أساسيات متعددة ومتميزة للحضارة الإسلامية. وحينما ابتعد المسلمون عن أصول دينهم الحنيف عصفت بهم موجات الغزو والسيطرة الأجنبية والتخلف، ووجدوا أنفسهم فى مؤخرة الركب بعد أن كانوا فى الصدارة.

ومن هنا بدأت التطلعات لتجاوز التخلف، وكان السبيل إلى ذلك هو الدرس والبحث الجاد عن أمجاد الحضارة الإسلامية ودراسة مقوماتها ودعاماتها، ولا مغالاة إذا اعتبرنا أن أول هذه المقومات هى الكتب التى تحتوى على خلاصة فكر العلماء وأروع إبداعات الأدباء، والمكتبات التى تحتضن هذه الكتب.

من هذا المنطلق كانت هذه الدراسة التى حاولت معالجة حركة الكتب ونشأة المكتبات فى الأندلس الذى كان فى يوم من الأيام مصدراً للعلم وشعاعاً للمعرفة ومنبعاً للثقافة على مستوى بلاد العالم قاطبة.

وعالجت الدراسة بصورة مركزة ثلاثة عناصر أساسية تمثل أركان البحث كله، وفى ذات الوقت تنسجم هذه العناصر وتتناغم مع الأهداف الموضوعة سلفاً. وجاء العنصر الأول ليتناول بالشرح والتحليل الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس باعتبارها الأساس الذى يتمخض عنه إنتاج الكتب ونشأة المكتبات، وجاء العنصر الثانى ليتناول الكتب منذ بداية إنتاجها حتى تصل إلى يد القارئ وكل ما يتعلق بها، وكانت الكتب ـ ولا تزال ـ تمثل الثمرة الناضجة التى أسفرت عنها الحياة العلمية والثقافية فى البلاد، وهى ـ فى ذات الوقت ـ بمثابة مصدر المعلومات الأول من مصادر المقتنيات فى المكتبات، أما العنصر الثالث والأخير فيعالج حركة ونشأة المكتبات فى الأندلس باعتبارها الموئل الأول الذى تؤول إليه الكتب وتسكن فى جنباته.

ويجب التنويه إلى نقطتين على درجة كبيرة من الأهمية:

الأولى: أن هذا البحث بعناصره الثلاثة بمثابة وحدة عضوية متكاملة، فقد تنثال فى بعض جزئياته المعلومات لإشباعها دون تكرار كانثيال الدم فى أجزاء جسم الإنسان دون تكرار. فقد يحدث ذكر معلومة هنا والإشارة إليها هناك، لتخدم غرضاً هنا وتؤيد فكرة هناك، وكان الباحث مدركاً لهذا تماماً، بل متعمداً إياه أحياناً، أسجل هذا لأوفر على القارئ الكريم مشقة البحث عن الأسباب الكامنة وراء تكرار بعض الأفكار على ندرتها.

الثانية: ما كان لهذا البحث أن يخطو هذه الخطوات ـ والتى أرجو أن تكون موفقة ـ إلا بتوفيق من الله العلى القدير، الذى وهب الباحث الصبر المتواصل والعمل المخلص الدؤوب فى الموضوع الذى يمثل مجرد الولوج فيه أو الاقتراب منه صعوبة بالغة، كما يعرف ذلك كل الأفاضل الذين خاضوا هذا المجال من قبل، ألا وهو «تاريخ الكتب والمكتبات فى الحضارة الإسلامية».

أبرز النتائج

أسفرت دراسة الموضوع عن مجموعة من النتائج يمكن تغريد أبرزها فى النقاط التالية:

١ ـ أثبتت الدراسة علاقة الارتباط السببية بين النهضة العلمية والفكرية وازدهارها من ناحية، وبين ازدهار وتنشيط حركة الكتب والمكتبات من ناحية ثانية.

٢ ـ أظهرت الدراسة بكل فخر دور العلماء العرب فى الأندلس وإسهاماتهم فى كافة قطاعات المعرفة البشرية، سواء فى قطاع الإنسانيات والآداب أو فى قطاع العلوم البحتة والتطبيقية.

٣ ـ كشفت الدراسة عن البواكير الأولى التى ساعدت على نشأة الكتب فى الأندلس وبيان مراحل إنتاجها، ابتداء من المؤلف حتى تصل إلى يد المستفيد الفرد، ومدى ضخامة هذا الإنتاج عددياً وتنوعه موضوعياً.

٤ ـ بينت الدراسة مدى شغف الأندلسيين بحب الكتب، وأثر ذلك عملياً فى تكوين المكتبات على أنواعها وخاصة مكتبات الأفراد (الخاصة).

٥ ـ أماطت الدراسة اللثام عن المكتبات فى الأندلس منذ البدايات الأولى حتى مرحلة النضج التى تمثلت فى مكتبة الحكم الثانى، وبينت مدى عمق الإحساس لدى الحكام بأهمية الكتب ونشأة المكتبات ودورها فى رقى الشعوب وتقدمها.

٦ ـ كشفت الدراسة عن مصادر بناء وتنمية المجموعات فى المكتبات الأندلسية، على اختلاف أنواعها، والتى تمحورت حول المصادر الأربعة الرئيسية: الشراء ـ النسخ ـ الوقف ـ والهبات والهدايا.

٧ ـ وضعت الدراسة أيدينا على آليات العمل الفنى فى المكتبات الأندلسية، حتى غدت هذه المكتبات على أعلى درجة من النضج والوعى المكتبى.

٨ ـ كشفت الدراسة عن دور المكتبات الأندلسية فى خدمة الدراسة والبحث ونشر الثقافة بين الناس حتى أصبحت ـ بحق ـ مراكز بحث بالمعنى الشامل لهذه الكلمة.

٩ ـ كشف الدراسة عن أهم العصور فى الأندلس، وهو القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) والذى يسمى تاريخياً بعصر الخلافة، حيث ازدهرت فيه كل مناشط الحياة، وعلى قمتها الكتب والمكتبات.

١٠ ـ أخيراً بينت الدراسة وضعية الكتب والمكتبات فى الأندلس وما آلت إليه وما أصابها من عوامل داخلية وخارجية.

أهم التوصيات

من خلال دراسة الموضوع برزت مجموعة من التوصيات التى يمكن تنقيطها فى النقاط التالية:

١ ـ حاجة التراث العربى إلى مزيد من الدراسات التى تكشف عن مكنوناته بصورة علمية، وخاصة التراث العلمى عند الأندلسيين.

٢ ـ أن نهوض الباحثين العرب بدراسة هذا التراث سيكشف بصورة أكبر عن دور الحضارة الإسلامية الأندلسية فى بناء النهضة الأوروبية، على اعتبار أن الحضارات إرث مشترك بين شعوب العالم.

٣ ـ توجيه الدراسات الأكاديمية نحو تاريخ الكتب والمكتبات فى الحضارة العربية الإسلامية فى مختلف البلاد لدراسة هذا الجانب الذى ما زال قابعًا فى زوايا النسيان.

٤ ـ تعميق الوعى لدى الدارسين العرب بأهمية المكتبات فى تاريخ الحضارة الإسلامية وخاصة فى الأندلس، وادخالها كمقرر دراسى يف أقسام التاريخ بالجامعات العربية، أو جعلها كجزء فى كتب التاريخ المدرسية وهذا أضعف الايمان.

هوامش الدراسة ومصادرها

١٠٢ ـ حامد الشافعى دياب. الضبط الببليوجرافى للNتاج الفكرى فى الأندلس، بحث قدم إلى الملتقى الدولى حول المراكز الثقافية فى المغرب العربى. الجزائر (وهران) ١٨ ـ ٢٠ أبريل ١٩٩٣. ٦٣ ورقة، ويعتبر هذا البحث مكملاً لدراسة موضوع «الكتب فى الأندلس».

١٠٣ ـ سعد محمد الهجرسى. الإطار العام للمعلومات. الإذاعات العربية، ع ٧٦ (فبراير ١٩٧٦). ص ٤٦ وما بعدها. نشر هذا الإطار أكثر من مرة وفى أكثر من مكان وتحت أكثر من مسمى مثل: نظرية الذاكرة الخارجية، وفى أكثر من طريقة للنشر، لعل أولها مصدرنا الذى أشرنا إليه، وهذا الإطار يعتبر من البواكير العربية الرائدة التى تتعرض لهذا الموضوع بالبحث والدراسة.

١٠٤ ـ ميدوز، جاك. آفاق الاتصال ومنافذه فى العلوم والتكنولوجيا، ترجمة حشمت محمد على قاسم. ـ القاهرة: المركز العربى للصحافة، ١٩٧٩. ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

١٠٥ ـ سقطت الخلافة الأموية فى دمشق سنة ١٣٢هـ وقضى العباسيون على دولة بنى أمية، وأخذوا يتتبعون بنى مروان بالقتل، واستطاع أحد هؤلاء الأمراء واسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يفلت من أيديهم وينجو بنفسه من فتك العباسيين، ونجح فى اجتياز مصر ملتمساً النجاة فى الأطراف الغربية للدولة الإسلامية حتى وصل إلى إفريقيا، وعبر منها سنة ١٣٨هـ إلى الأندلس، فسمى بالداخل لأنه أول من دخلها من بنى مروان (أنظر: السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٢).

١٠٦ ـ ريبيرا، خوليان، مرجع سابق، مج ٤ ،جـ ا، ص ٨٢.

١٠٧، ١٠٨ ـ أنظر:

* المقرى. مرجع سابق، جـ ١، ص ٤٦٣.

* ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، ص ٧١.

* عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، مرجع سابق، ص ٤٠ ـ ٤١.

* محمد إبراهيم زغروق. مكتبة الأمويين الإسلامية في قرطبة وتأثيرها الفكري في شعوب غرب أوروبا. مجلة البحوث الإسلامية، ع ١٧ (١٤٠٦هـ) ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

١٠٩ ـ محمد فريد وجدى. دائرة معارف القرن العشرون: الرابع عشر ـ العشرين. ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩. جـ ٨، ص ٦٢.

١١٠ ـ محمد محمد أمان. الكتب الإسلامية، ترجمة سعد بن عبد الله الضبيعان. ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٠. ص ٦٦.

١١١ ـ هونكه، سيغريد. مرجع سابق، ص ٤٩٩.

١١٢ ـ محمد عجاج الخطيب. لمحات فى المكتبة والبحث والمصادر. ـ ط ٦. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠. ص ٤٠.

١١٣ ـ «مجلة» المقتطف، مج ٧ (١٨٨٣) ص ٥٦٤.

١١٤ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، صفحات متفرقات.

١١٥ ـ دى بور، ت.ج. تاريخ الفلسفة فى الإسلام، تعريب عبد الهادى أبو ريده. ـ ط٢. ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧. ص ٤١٧.

١١٦ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. مرجع سابق، ص ٣٩.

١١٧ ـ محمد ماهر حمادة. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٦.

١١٨ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، صفحات متفرقات.

١١٩ ـ ابن بشكوال. مرجع سابق، جـ١، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

١٢٠ ـ نفس المؤلف والمرجع، جـ٢، ص ٦٥٤.

١٢١ ـ شلبى مولاى اسماعيل. وقفة مع المكتبة على أرض المغرب. الأمة (قطر)، س ٤، ع ٤٧ (أغسطس ١٩٨٤). ص ٧٧.

١٢٢ ـ للاستزادة أنظر:

* المراكشى، عبد الواحد. مرجع سابق، ص ٢٣٩.

* محمد تطوان المنونى. العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين. ـ تطوان، د. ن. ١٩٥٠. ص ٢٨١.

* شلبى مولاى اسماعيل. مرجع سابق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

١٢٣ ـ القلقشندى، أبو العباس أحمد.

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. ـ القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩١٤ ـ ١٩١٩. جـ١، ص ٤٦٦.

١٢٤ ـ محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

١٢٥ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٤٣٢.

١٢٦ ـ حسن محمد جوهر، مصطفى حسن شرف. مرجع سابق، ص ١١٣.

١٢٧ ـ الخزانة الملكية فى المغرب. الأمة (قطر)، س٢، ع٢٢ (أغسطس ١٩٨٢). ص ٥٧ وأيضاً:

* محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

١٢٨ ـ حامد الشافى دياب. مرجع سابق، ص ٣٧.

١٢٩ ـ محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص ٤٣٣.

١٣٠ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٦.

١٣١ ـ المراكشى. مرجع سابق. ص ٥٤.

١٣٢ ـ أنظر:

* ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٦.

* محمد إبراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٣٧.

١٣٣ ـ ابن الأبار. الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس. ـ القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣. جـ١، ص ٢٠٦.

١٣٤ ـ محمد فريد وجدى. مرجع سابق، مج١، ص ٦٦٦.

١٣٥ ـ للاستزادة راجع:

* المقرى. مرجع سابق، مج١، ص ٣٨٦، ص ٣٩٥.

* هونكه، سيغريد. مرجع سابق، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

* ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٥ ـ ٨٦.

١٣٦ ـ ابن بشكوال. مرجع سابق، جـ١، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

١٣٧ ـ أشار خوليان إلى أسماء كثير من النساخين والنساخات الذين يعملون فى مكتبة الحكم (أنظر: ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤ جـ١، ص ٨٧ ـ ٨٩).

١٣٨ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٩٠.

١٣٩ ـ يحيى محمود ساعاتى. مرجع سابق، ص ٣٣.

١٤٠ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٢، ص ٥٤٣.

١٤١ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٨.

١٤٢ ـ نفس المؤلف والمصدر، مج٥، جـ١، ص ٨٨.

١٤٣ ـ ابن جلجل. مرجع سابق، المقدمة صفحة (ك)، ص ٢٢.

١٤٤ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ١، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

١٤٥ ـ المراكشى. مرجع سابق، ص ١٧٠.

١٤٦ ـ محمد إبراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤١.

١٤٧ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٤، جـ١، ص ٨٩.

١٤٨ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ١، ص ٣٨٦.

١٤٩ ـ جاءت عناوين هذه المؤلفات فى أكثر من مصدر منها: المدارك للقاضى عياض، جـ١، ص ٤٥، جـ٣، ص ٥٣١، ٥٣٦، ٥٥٤ ومنها تاريخ قضاة الأندلس للمالقى، ص ١٩٤ (أنظر: محمد ابراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٥).

١٥٠ ـ ريبيرا، خوليان. التربية الإسلامية فى الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكى. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١ ص ١٩٠ (والنص نقلاً عن: محمد إبراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٢).

١٥١ ـ ابن الفرضى. عبد الله محمد بن يوسف الأدى. تاريخ العلماء. ـ القاهرة: الدار المصرية، د.ت. ترجمة رقم ١٢٩٢. (والنص نقلاً عن: محمد إبراهيم زغروت. مرجع سابق، ص ٣٤٢).

١٥٢ ـ محمد ماهر حمادة. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٤.

١٥٣ ـ ابن حزم، محمد. جمهرة أنساب العرب، تحقيق لينى بروفنسال. ـ القاهرة: دار المعارف، د.ت. ص ٩٢.

١٥٤ ـ بيدرسن، يوهنس. مرجع سابق، ص ١٥٢.

١٥٥ ـ أحمد شلبى. مرجع سابق، ص ١٥٨.

١٥٦ ـ كثير من المصادر أشار إلى ذلك أنظر على سبيل المثال:

* المقرى. مرجع سابق، مج١، ص ٣٨٥.
* بروفنسال، ليفى. مرجع سابق، ص ٩١.

١٥٧ ـ ابن حزم، محمد. مرجع سابق، ص ٩٢.

١٥٨ ـ محمد محمد أمان. مرجع سابق، ص ٦٤.

١٥٩ ـ المقرى. مرجع سابق، مج١، ص ٣٩٥.

١٦٠ ـ محمد فريد وجدى. مرجع سابق، جـ٧، ص ٧٥٢ (مادة قرطبة).

١٦١ ـ المقرى. مرجع سابق، مج١، ص ٣٩٥.

١٦٢ ـ نفس المؤلف والمرجع والصحفة.

١٦٣ ـ للاستزادة أنظر:

* ابن شكوال. مرجع سابق، جـ١، ص ٢٩٨.

* ريبير، خوليان. مرجع سابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

١٦٤ ـ محمد ماهر حمادة. المكتبات فى الإسلام، مرجع سابق، ص ١٦١.

١٦٥ ـ أحمد شلبى. مرجع سابق، ص ١٥٦.

١٦٦ ـ للاستزادة أنظر:

* السيد عبد العزيز سالم. فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٥ ـ ١٧.

* شاكر مصطفى. الدليل فى التاريخ العربى الإسلامى. ـ ط١. ـ الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ١٩٨٦. جـ١، ص ٦٦٤.

* محمد عبد الوهاب خلاف. رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس. المجلة العربية للعولم الإنسانية (الكويت)، مج٢، ٦ (١٩٨٢)، ص ٢٦ وما بعدها.

* البلوى، أبو جعفر أحمد بن على الوادى آشى. ثبت البلوى، دراسة وتحقيق عبد الله العمرانى. ـ بيروت: دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣. ص ٤٩.

١٦٧ ـ الطليطلى، صاعد بن أحمد. طبقات الأمم. ـ القاهرة: مطبعة السعادة، د.ت. ص ٨٦ ـ ٨٧.

١٦٨ ـ ريبيرا، خوليان. مرجع سابق، مج٥، جـ١، ص ٩٤ ـ ٩٧.

١٦٩ ـ المراكشى، عبد الواحد. مرجع سابق، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

١٧٠ ـ محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص ٤٣٢.

١٧١ ـ الزبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسى. طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣. ص ٢٥٣.

١٧٢ ـ المقرى. مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٣٦.

١٧٣ ـ عبد الستار الحلوجى. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. مرجع سابق، ص ٣٨.

١٧٤ ـ ريبيرا، خوليان مرجع سابق، مج٥، جـ١، ص ٩٢.

١٧٥ ـ نفس المؤلف والمرجع، ص ٩٣.